الفصل الأوّل

واقع الجماهير العربية، وبداية البحث عن الهوية واللغة، وبعث الحركة الثقافية

واقع الجماهير العربية في إسرائيل حتى أواخر السبعينات
ودور الحركة الثقافية
في المحافظة على الهوية القومية

تتميّز الحركة الثقافية للعرب الفلسطينيين الذين فرض عليهم الواقع السياسي أن يظلوا ضمن الحدود السياسية لدولة إسرائيل التي أقيمت عام ١٩٤٨ عن غيرها من الحركات الثقافية بأنها واجهت منذ البداية واقعا غريبا يتمثل في :

أولا: أن الحركة الثقافية الفلسطينية التي كانت نشطة وفعالة في الثقافة العربية على مَدار الخمسين سنة من هذا القرن ، ورَفَدت الثقافة العربية بكبار المفكرين والأدباء والشعراء والمربين وجدت نفسَها بُعَيْدَ ما حلّ بالوطن عام ١٩٤٨ تُصارع البقاء وتفتقر لأدنى شروط الوجود نتيجة لتفريغ البلاد من معظم أهلها الحقيقيين ورحيل كوادر المثقفين والمتعلمين مع الذين رحلوا .

ثانيا: واجهت هذه الحركة سياسة غير وديّة من حكومات الدولة الجديدة تمثّلت في السياسات المرسومة لتَغييب الثقافة العربية واللغة العربية والانتماء العربي.

ثالثا: تَنكر الأهل في البلاد العربية للعرب الفلسطينيين الباقين فوق تراب وطنهم وقطع كل علاقة معهم ، وفيما بعد النظر اليهم كجزء من الكيان الآخر المرفوض ، وهذا استتبع التجاهل والرفض وحتى الاتّهام . ولم يتغير هذا الموقف حتى أيامنا هذه ، فانّ الرفض والتّجاهل والاتّهام لا يزال ما يميّز تعامل المثقفين العرب في مختلف الأقطار العربية مع هذه الشريحة من العرب الفلسطينيين الذين أطلقوا عليهم اسم (عرب ١٩٤٨ أو عرب اسرائيل أو عرب الداخل أو عرب داخل الداخل). وهذا ما نشاهده ، هذه الأيام ، في تعامل المثقفين في العالم العربي مع الكتاب والأدباء والفنانين في الأراضي المحتلة(قطاع غزّة والضفّة الغربية)، والذي وصل ذروته في فصل "اتحاد الكتاب الفلسطينيين " من عضوية "اتحاد الكتاب العرب" . بحجة رفض المثقفين العرب للتطبيع مع اسرائيل.

منهجية سياسة الحكومات الاسرائيلية تجاه الأقلية العربية:

حتى تكون الصورة البانورامية لوضع الحركة الثقافية للعرب الباقين ضمن حدود دولة اسرائيل واضحة لا بدّ لنا من التوقّف عند منهجيّة السياسة التي اتّبعتها الزعامة

الصهيونيّة قبل قيام الدولة وبعدها تجاه العرب في هذه البلاد.
وتتوزّع هذه السياسة على المحاور التالية:

طرد العرب وترحيلهم:

لقد عمدت الزعامة الصهيونيّة منذ بداية الاستيطان الصهيوني لفلسطين على تفريغ البلاد من أهلها العرب ، وتحويلهم إلى غرباء ، ليس أمامهم من خيار إلاّ الرّحيل ، وذلك عن طريق شراء الأراضي وملكيّتها بواسطة الوكالة اليهوديّة وكبار الأغنياء اليهود، وتوطين اليهود القادمين من مختلف دول العالم.

كما عمدت القيادة إلى تضييق الحياة المعيشيّة على العرب عن طريق تشجيع العمل العبري واحتلال مكان العرب في الأرض والسوق والعمل. وقد برز ذلك في تصريح مناحيم أوسشكين ، أحد قادة الصهيونيّة ، أمام لجنة التحقيق التي أقامتها الوكالة اليهوديّة لبحث العلاقات اليهوديّة العربيّة في آذار عام ١٩٤٠ : "إنّنا نؤيّد عملا عبريّا وإنتاجا عبريّا مئة بالمئة وذلك مرّة أخرى من منطلق عدم تقوية العرب وعدم تمكينهم من ترسيخ جذورهم في البلاد" (١) .

هذا الكلام يلتقي مع ما ذكرته مجلّة "دي نيو جوديا" من أنّ غولدة مئير صرّحت في أعقاب المؤتمر الصهيوني العالمي عام ١٩٣٧. "إنّها تؤيّد نقل العرب من فلسطين . فالعرب يمتلكون أقاليم واسعة يستطيع عرب فلسطين أن يستوطنوها .(٢) وتحدّث بعض الزعماء عن إمكانيّة طرد العرب من فلسطين مثل أليعازر كبان الذي تسلّم منصب أوّل وزير ماليّة في حكومة إسرائيل بقوله: " لن أتطرّق هنا إلى مسألة تَرحيل العرب ، لكنّه ليس منطقيّا أن يُشبه هذا الأمر بطرد اليهود من ألمانيا أو غيرها من الدول . إذ أنّنا لا نتكلّم عن طرد العرب بل عن ترحيلهم من الدولة العبريّة إلى دول عربيّة يعيش فيها أبناء الشعب العربي ، كما أنّنا نسعى لأن نؤمّن لهم فيها ظروفا معاشيّة ليست أسوأ بكثير من الظروف التي عاشوا فيها هنا." (٣)

وهذه السياسة هي التي انتهجها دافيد بن غوريون الذي بنى نظريته في التعامل مع العرب على ركيزتين هما : الاستقلال وترحيل العرب . ورأى في ترحيل العرب ضرورة لا بدّ منها في حالة تقسيم البلاد .(من تقييم ب. لوكر الذي شغل منصب رئيس ادارة الوكالة اليهودية لسياسة بن غوريون)(٤). وهذا يؤكد ما نشرته "نيويورك تايمز" في

شهر أكتوبر ١٩٧٩ حول ضلوع بن غوريون في عملية طرد عرب مدينتي اللد والرملة حيث ذكرت أنّ المراقبة العسكرية الإسرائيلية حذفت من مذكرات رابين، أنّ رئيس الوزراء ووزير الحربية دافيد بن غوريون أمر خلال حرب فلسطين ١٩٤٨ بتشريد ٥٠ ألفا من السكان العرب في اللد والرملة . وقد سارع يغئال ألون للرد على هذا الكلام في حديث له مع الإذاعة مدّعيا أن بن غوريون لم يطلب ذلك وأن أهالي اللد والرملة هم الذين تركوا بيوتهم وهربوا استجابة لأوامر القوات العربية .

وبن غوريون نفسه هو الذي يشهد عليه الأديب حاييم غوري بأنه علّق في مكتبه في وزارة الدفاع أيام حرب ١٩٤٨ لافتة كتب عليها : " لا أطرُدُهُم من أمامك في سنة واحدة لئلاّ تصير الأرضُ خربة فتكثرُ عليكَ وحوشُ البريّة . قليلا قليلا أَطرُدُهُم من أمامكَ الى أن تثمر وتملك َالأرضَ " (سفر الخروج ،الاصحاح ٢٣ الآيتين ٢٩ و ٣٠)(٥).

وقبل هاتين الآيتين تأتي الآية : " وأُرسلُ أمامك الزنانير فتطرُد الحويين والكنعانيين والحثيين من أمامك " وتتلوها الآيات : "واجعل تخومك من بحر سوف الى بحر فلسطين، ومن البرية الى النهر . فإنّي أدفع الى أيديكم سكان الأرض فتطرُدُهم من أمامك" . وفي هذا ما يدلّ على تَوجّهات بن غوريون.

هذه المنهجية في السياسة الاسرائيلية تجاه العرب استمرت بعنف أكثر بعد قيام الدولة وبقاء أقليّة عربية لا يتجاوز عددها ١٤٨ ألف نسمة . وطَرد العرب ظلّ الحلم الذي يُراود واضعي السياسة تجاه الأقلية العربية . فرئوبين بركات رئيس الدائرة السياسية في الهستدروت يقول: "اعتقدنا بأن اسرائيل ستكون دولة يهودية نقية من الأقليات(٦) . ومجلة "هادور" مجلة حزب مباي الحاكم كتبت في عددها بتاريخ ١٩ كانون الثاني عام ١٩٥٠إن بقاء أكثر العرب في اسرائيل يجب أن ينظر اليه على أنه مسألة زمن فقط(٧). وبتاريخ ١٩ كانون الثاني عام ١٩٥١ كتبت المجلة نفسها : "بأنّ الضغوط التي هدفت الى جعل حياة العرب في اسرائيل بائسة تُولّد اليأس وتضطرهم الى اختيار ترك بلادهم .. انّ هذه الضغوط لم تحقّق أهدافها(٨)

أمّا يوسف فايس الذي شغل منصب رئيس صندوق الأراضي القومي اليهودي فقد كتب في كتابه "يومياتي ورسالتي الى الأولاد" أنه في ٢٨ أيار عام ١٩٥١ قابل شريت واتفق معه على أن يسافر بصفة مبعوث حكومي الى الأرجنتين لفحص النباتات في تلك البلاد

" ولكن الهدف الحقيقي كان دراسة امكانات انشاء استيطان زراعي للعرب من الجليل " وأن شريت اتصل به يوم ٣١ أيار عام ١٩٥١ وأبلغه أنه حصل على مصادقة الحكومة على مشروع ترحيل العرب النصارى من الجليل الى جنوب أميركا" . ويعترف فايس أنه استمر في محاولاته وخطّط عام ١٩٥٥ لتوطين العرب الفلسطينيين في ليبيا.(٩)

هذه السياسة لم تتغيّر مع مرور الوقت فعيزر وايزمن ، وزير المواصلات في حينه ورئيس الدولة فيما بعد ، صرّح في حفل أقامه لأعضاء لجنة عمال أشدود بأنّ لديه حلاّ لقضيّة الأقليات في اسرائيل وهو "ارسال كل المسلمين الى عمان ، وارسال كل الدروز الى جبل الدروز(١٠) . وموشي ديان صرّح في ٢٣ كانون الأول عام ١٩٧٩ "إذا كان العرب في المناطق وفي اسرائيل لا يرغبون في العيش معنا بسلام فعليهم أن يعرفوا أنهم سيدفعون ثمنا باهظا كما دفعوا في سنة ١٩٤٨»(١١). ومثله صرّح آرئيل شارون عام ١٩٨٠ : "ليس لدينا أي اتجاه لمصادرة أراضي المواطنين العرب في الجليل ولكني أنصح المواطنين العرب في هذه المنطقة ألا يتطرّفوا في مواقفهم حتى لا تتكرّر تلك المأساة التي أصابت الشعب الفلسطيني عام ١٩٤٨»(١٢).

وقد أكد ذلك رئيس الاستخبارات العسكري ووزير اعلام سابق الجنرال أهرون يريف في محاضرة له ألقاها في الجامعة العبرية في القدس يوم ٢٢ أيار ١٩٨٠ وأثارت ضجة كبيرة ، حيث قال: "هناك آراء تدعو لاستغلال حالة الحرب من أجل طرد ما بين ٧٠٠ و٨٠٠ ألف عربي".

سياسة التّجهيل:

فشل سياسة الطرد والترحيل وبقاء عدد كبير من العرب الفلسطينيين في البلاد دفع واضعي السياسة الى تكتيك جديد في التعامل مع هذه الأقلية يهدف الى قطعها عن انتمائها القومي العربي ونسيانها لغتها العربية والى خلق شخصية مشوهة خنوعة غريبة عن واقعها القومي والسياسي وعن تاريخها المميز ويعمل على غَرس الاحساس بدونيّة العرب بشكل عام والفلسطينيين بشكل خاص من ناحية ، وتمَجيد عُلَويّة اليهود في الفكر والعلم والثقافة من ناحية أخرى . وإلحاق العرب بالمجتمع العبري وتبنّي حضارته ولغته . وقد اتّفق عدّة بحّاثة وبشكل مستقل على أنّ هدف السياسات التربوية والثقافية هو تشويه الهوية وتحويل مجراها الى آفاق فردية أنانيّة وطائفية(١٣)

وبدأت سياسة التجهيل تعمل عملها، ووضعت المناهج التعليمية الموجهة فمن ناحية ظلّت البلدات العربية تفتقر للمدارس والمعلمين وبالمقابل عملت السلطات المختصة على التباطؤ في حل أزمات التعليم وتتشدّد في تعيين المعلمين ولا تتورّع عن فصل أي معلّم تَشْتَمّ منه أيّ مَوقف سياسي مُعاد . وعملت على ابخاس اللغة العربية حقّها في منهاج التعليم بينما اهتمت بابراز قيمة اللغة العبرية وأهميتها حيث جاء في منهاج تدريس اللغة العربية للعرب أنّ الأهداف هي : قراءة صحيحة وفهم للغة المكتوبة المحكيّة والتعبير المنطقي والدقيق والواضح للأفكار والمشاعر شفهيا وكتابيا . وتنمية القدرة لفهم وتقدير الأدب الجيّد . وفتح آفاق المعرفة للطالب في مجال الثقافة المكتوبة في الماضي والحاضر .

بينما أهداف تدريس اللغة العبرية للعرب هي : اعطاء الطالب معرفة شاملة للغة العبرية ، فهم المقروء بها ، تنمية القدرات الوظيفية ، شفهيا وكتابيا لاحتياجات عملية وثقافية . وفتح الباب أمام الطالب العربي ليصبح على علم بالحضارة اليهودية وقيمتها في الماضي والحاضر . وتمكينه من فهم الحياة الاجتماعية والثقافية لليهود في اسرائيل .

وجاء بشكل بارز وواضح : "أنّ اللغة العبرية تُدرّس وفق خطّة ثابتة وواضحة في المدارس الابتدائية العربية ابتداء من الصف الرابع ، ونوصي على تعليمها ابتداء من الصف الأول وحتى من البستان،ويمكن في ظروف معينة أن تحلّ محل اللغة العربية" (١٤).

ولم يختلف الوضع في التعامل مع موضوع "التاريخ" ، فالساعات المخصصة لدراسة التاريخ العربي الاسلامي تُشكل جزءا بسيطا من الساعات المعطاة ، وتساوي نصف الساعات المخصصة للتاريخ العبري ودولة اسرائيل .(١٥)

وبدأت السياسة الهادفة لمحو الهوية القومية للأقلية العربية تتضّح سنة بعد أخرى وبرزت بكل حدّتها في تصريح مستشار رئيس الوزراء للشؤون العربية أوري لوبراني: "من الأفضل أن لا يكون هناك طلاب عرب (طلاب جامعة) ، فلو بقوا حطابين لكان من الأسهل أن نحكمهم" (١٦).

وظهرت نتائج هذه السياسة الموجّهة في الأعداد الضئيلة للخريجين العرب الذين حصلوا على شهادة البجروت (التوجيهي) . ففي عام ١٩٥٥ نجح ٣٨ طالبا وفي عام ١٩٥٨ نجح ٢٨ طالبا ، ووصل مجموع الحاصلين على شهادة البجروت حتى نهاية عام ١٩٦٣ إلى ٧٩٧ طالباً فقط.(١٧) .

وقد حدّدت السياسة التربوية الاسرائيلية في تعاملها مع الجماهير العربية من منطلق الفرضية : أنّه لا توجد تربية عربية وانما توجد تربية اسرائيلية للعرب . ولا تختلف السياسة الثقافية الرسمية العامة عن التربوية ، ففي كتابه الصادر عن اليونسكو يرى (Joseph Michman) "أنّ ثقافة أصيلة لا يمكن أن تتطوّر لدى العرب في اسرائيل . وأسباب ذلك أنهم يفقدون ذاتا حضارية جماعية لانهم طوائف مختلفة يجمع بينها نطق العربية . والسبب الثاني هو أنّه لم يكن وجود ثقافي في فلسطين أبدا . فالعرب المتواجدون في هذه البلاد كانوا دائما مستهلكين لثقافة أنتجت وتبلورت في العالم العربي خارج فلسطين . والحلّ هو تعويض هذه المجموعة عن نقصانها الثقافي بواسطة ترجمة كتب من العبرية الى العربية وتعليم العرب اللغة العبرية بحيث يمكنهم تعويض نقصهم الثقافي . فعندما يصبحون ممتلكين للغة العبرية سوف لا يجدون أيّة مشكلة في التمتّع بالنشاطات الثقافية العبرية أو بقراءة المنشورات الصادرة باللغة العبرية" (١٨) .

سياسة الاستيلاء على الأرض العربية:

استمرارا للسياسة التي اتبعتها الوكالة اليهودية منذ بدء الاستيطان اليهودي في فلسطين الهادفة الى الاستيلاء على الأرض وتفريغ البلاد من أهلها العرب فقد عملت الحكومات الاسرائيلية المتتابعة، وبصورة أعنف وأشد ، على مصادرة الأرض العربية بمختلف الحجج والقوانين . لقد اعتقدت القيادات السياسية – وكما بيّنا أعلاه – أنّ وجود العرب الباقين في هذه البلاد ليس الاّ لوقت قصير، اذ أنّ العرب سوف يفضلون الرحيل والانضمام الى أهلهم وأشقائهم في العالم العربي ، ولم تأل القيادات الصهيونيه عن البحث عن المكان البديل لعرب هذه البلاد اذا كان في كندا أوالأرجنتين أو ليبيا أو أيّ أرض عربية أخرى . لكن فشل هذه الخطط كما اعترفت بذلك مجلة "هادور" مجلة حزب "مباي" الحاكم "بأنّ الضغوط التي هدفت الى جعل حياة العرب في اسرائيل بائسة تولّد اليأس وتضطرهم الى اختيار ترك بلادهم .. انّ هذه الضغوط لم تحقّق أهدافها" (١٩) . جعلها تبحث عن البديل السريع والفعال لسلخ العربي عن أرضه ، وبالفعل وجدت في قوانين الطوارىء الانتدابيّة بُغيتها فراحت تختار منها ما يُساعدها على تحقيق الغاية وتسن القوانين التي تريد . هذه القوانين هي التي مهدت الطريق وسهلتها لمصادرة الأرض العربية وطرد أصحابها وترحيلهم في داخل وطنهم . ومن هذه القوانين أذكر قانون "الحكم

العسكري" الذي أعطى للحاكم العسكري الحكم المطلق على المواطنين العرب وفرض عليهم عدم مغادرة بلدهم الاّ بعد الحصول على تصريح ولمدة محددة، وقانون "القيّم على أموال الغائبين" الذي جعل الدولة وارثة لكل الأملاك التي طرد أصحابها منها عند قيام الدولة وخاصة أراضي الأوقاف الاسلامية، وقانون "مصادرة الأرض" لأغراض عسكرية وأمنية أو لعدم استصلاحها، وقانون "تركيز الأراضي" الذي هدف الى حصر الأراضي التي يملكها الفلاح العربي في مكان واحد ممّا يمكّن الدولة من الاستيلاء على قسم كبير من أرضه بأساليب الترغيب والتّرهيب .

وقد عملت مختلف الحكومات ، وبمنهجيّة واستمرارية على تطبيق هذه القوانين بمختلف الأساليب المتاحة ممّا جعل الجماهير العربية تجد نفسها ، من سنة الى أخرى ، تفقد أرضها ويتهدّد كيانها وتصبح غريبة في وطنها . هذه السياسة التي لم يتوقف تنفيذها أبدا هي التي فجّرت غضب الجماهير العربية في الثلاثين من آذار عام ١٩٧٦ .

سياسة "فرّق تسد":

وجدت السلطات الاسرائيلية ، وقد أيقنت استحالة تفريغ البلاد من أهلها العرب على أثر فشل كل الخطط التي وضعتها وعملت جاهدة على تنفيذها داخليا وخارجيا ، أنّ نجاح سياستها في عزل الجماهير العربية وقطعها عن انتمائها العربي لعالم عربي كبير وصهرها في بوتقة المجتمع الاسرائيلي بحضارته ولغته وتراثه وتاريخه لا يمكن أن يتم الاّ بتمزيق هذه البقيّة الباقية وتوزيعها الى كانتونات جغرافية متباعدة والى انتماءات مذهبية مختلفة . وقد نجحت في الفصل بين هذه الجماهير بحيث فصل عرب النقب عن اخوتهم في أواسط وشمال البلاد ، وحوصر عرب المثلث بطوق أمني وحدّدت الحجج الأمنية من التقاء الواحد بالآخر ومن انتقال العربي من منطقة الى منطقة.

هذا التمزيق الجغرافي تبعه تمزيق لوحدة الجماهير العربية، حيث اتّبعت السلطات سياسة التفرقة بين هذه الجماهير ولم تنظر اليها كأقليّة عربية وانّما كأقليّات، وقَوّت مشاعر الانتماء المذهبي لدى أبناء الدين الواحد ، فالمسيحيون قسموا الى روم أورثوذكس وروم كاثوليك ، وقرّبت السلطات الروم الكاثوليك اليها من خلال تعاملها المميّز مع الكنيسة الكاثوليكية والقيادات الدينية للكنيسة بينما نظرت الى الروم الأورثوذكس وكأنهم حلفاء الاتحاد السوفييتي وحَمَلَة لواء الرفض والتّحريض ، خاصة وأنّ معظم قيادات

الحزب الشيوعي كانت تنتمي الى الروم الأورثوذكس . والمسلمون الذين يشكّلون حوالي سبعين بالمائة من الجماهير العربية كانوا الهدف الأوّل الذي سَعَت السلطات لتمزيقه وتشتيته . وأوّل خطوة اتّخذتها توزيع المسلمين الى ثلاث فئات : مسلمون ، بدو، ودروز . والأقلية العربية أصبحت أقليات تتكوّن من مسلمين وبدو ودروز وكاثوليك وروم أورثوذكس ، وأخذت وسائل الاعلام المختلفة تُرَسِّخ هذه الانقسامات فأحيانا نسمع ترديد "العرب والمسيحيين والدروز" وأحيانا " العرب والبدو والدروز والمسيحيين " وأحيانا "العرب والدروز". وأخذت السياسة المرسومة تعمل عملها بتفتيت وحدة الجماهير بالعمل بكل إصرار على فصل الدروز عن المسلمين وعن انتمائهم العربي بخَلق ما يُسمّى "القوميّة الدرزيّة" و "الشعب الدرزي" وأخذت القوانين تصدر عن الكنيست الواحد تلو الآخر مثل: قانون "التجنيد الإجباري" حيث فُرض عام ١٩٥٤ على كافّة المواطنين العرب، لكن تخوّف رئيس الحكومة دافيد بن غوريون من تجنيد آلاف الشباب العرب جعله يُجمّد القانون ، وفقط بعد عامين طُبّق القانون على أبناء الطائفة الدرزية عام ١٩٥٦، وقانون "المحاكم الدينية الدرزية" عام ١٩٦٢، وتعليمات وزارة الداخلية لمكاتبها بكتابة كلمة "درزي" في خانة "القومية" لكل درزي يتقدّم لاستصدار بطاقة هويّة.(٢٠) وقد نجحت السلطات كذلك في جذب الكثيرين من القيادات البدوية وفي تجنيد المئات من الشباب البدو إلى قوات الجيش وإلى إثارة ما يُسمّى بالانتماء البدوي. كما عملت هذه السياسة، وفي كل بلدة، على إثارة المشاعر القَبَليّة والعائليّة بتقريب هذه العائلة على حساب تلك، أو بتقسيم العائلات في كل بلدة بين رجال السلطة المتصارعين على الزعامة، وكثيرا ما كانت تتفجّر الاشتباكات والصّراعات، حتى الدمويّة منها، ما بين هذه العائلة المؤيدة لهذه القائمة الحليفة لحزب "المباي" الحاكم وتلك العائلة المؤيّدة للقائمة العربية الثانية الحليفة أيضا لحزب "المباي" الحاكم. وكلا العائلتين كانتا تتّحدان ضدّ العدوّ المشتَرَك المتمثّل في المُعارضين للسياسة الحكوميّة والمؤيدين أو المنتمين للحزب الشيوعي.

الصوت الوحيد:

وسط هذا الواقع الذي رسمناه لواقع الجماهير العربية قُبَيل وبعد قيام دولة اسرائيل وطَرد وتَرحيل الشعب الفلسطيني من وطنه وجد الانسانُ العربي نفسَه في وطنه كالمُنبَتّ لا وطنَ يحضنه ولا أهل يقفون الى جانبه ، وجد نفسه وحيدا في مواجهة غريب لا يُريده ،

يسلبه كل ما يملك ويخطط ليل نهار لطرده وسحق شخصيته واذابة هويته ..

ولم يجد هذا العربي المُنبتّ ما يُعينه على تحمّل واقعه ومُواجهة مصيره وتبصيره بما سيحدث له الاّ في ما كانت تنشره صحيفة الحزب الشيوعي "الاتحاد" التي عادت للصدور يوم ١٨ تشرين الأول ١٩٤٨ ، حيث باشرت منذ عددها الأول في الدفاع عن الجماهير العربية والمطالبة بتسوية عادلة للقضية الفلسطينية . ورغم أن مواقف الجماهير العربية كانت مُتباينة في موقفها من "الحزب الشيوعي" بسبب مواقفه المُؤيدة لتقسيم البلاد الى دولتين الاّ أن صحيفة هذا الحزب وممثليه وقياداته كانت الصوت الوحيد الذي كان يُعبّر عمّا يختلج في صدور هذه الجماهير وما تُطالب به .

نتيجة لذلك التفّت الشخصيات الوطنية الواعية القليلة التي بقيت في الوطن حول هذا الحزب وأيّدته وعملت معه على تَوعية الجماهير ودفع نضالاته في المعارك المصيرية التي خاضتها . وبالمقابل تشكّلت الجبهة المقابلة المتعاونة مع السلطات والمهادنة والراغبة في الانصياع والتسليم حفظا للبقاء وأملا في كسب عطف وتَفهّم المسؤولين في الحكومة .

وكما عبّرت القوى الواعية الوطنية والشيوعية عن مواقفها بصراحة ووجدت في مُثقفيها أفضل وسيلة لايصال صوتها الى الجماهير هكذا عملت السلطات على دعم الجبهة المقابلة بتَثبيت مركز حلفائها بين الجماهير عن طريق تأييدهم وتعيينهم في مراكز اجتماعية مختلفة ، وإيصال بعضهم ليكون عضوا في البرلمان ، وأيضا أفرزت هذه الجبهة من بين مؤيّديها أصحاب أقلام اجتهدوا أن يُجمّلوا عمل السلطة وصورة المتعاونين معها ووفّرت لهم المنابر ليقولوا عبرَها كلمتهم والمنصّات التي يُسمعون من فوقها خطبهم .

معركة المُواجهة كانت في الوقت ذاته تدور في أكثر من ساحة، فبينما كانت معركة الأرض والتّشَبّث بها قوية وفي مُنتهى الضّراوة هكذا كانت المعركة ضدّ طرد وتَرحيل المواطنين العرب من بلد الى بلد ، والمعركة ضدّ الاستيلاء على أملاك الغائبين والأوقاف ، والمعركة ضدّ سياسة التجهيل ، والمعركة ضدّ شقّ وحدة الجماهير العربية .

أستطيع أن أحكم اليوم ، وبعد مرور أكثر من خمسين عاما على قيام دولة اسرائيل ، أنّ المعركة الوحيدة التي انتصرت فيها الجماهير العربية انتصارا كاملا في مواجهتها للمخططات الاسرائيلية هي معركة "الهويّة القومية" ، فقد نجحت الجماهير العربية أن تستعيد ثقتها بنفسها وتحيي تراثها وتُقيم جسورَ التواصل مع ثقافتها ولغتها وهويتها .

بينما هذه الجماهير لم تنجح النجاح المطلوب في معاركها الثانية لعوامل عدّة تحتاج الى الدراسات المُطَوّلة والعميقة .

الحركة الثقافيّة ومُحافظتها على الهويّة القوميّة:

لقد أدركت المجموعات المثقفة الواعية القليلة في السنوات الأولى لقيام دولة اسرائيل أنّ معركة الجماهير العربية الحقيقية هي في محاربة سياسة التجهيل المرسومة والمخطّط لها لصهر الجماهير العربية في قالب جديد منقطع عن ماضيه وانتمائه البعيد العميق . فالحياة الأدبية بين هذه الجماهير كانت متوقّفة ، وهذا يعني أنّ سلاح الأدب الذي هو سلاح ماض من أسلحة الشعب في نضاله لم يكن متوفرا لخوض معركة الوجود ومعركة المحافظة على الهوية القومية . والسؤال الذي طُرح وبحق :

– "أيّة حركة شعبية في التاريخ لم يستنفرّها الأدب ؟ فهل كان النجاح يكتب للثورة على الاقطاع لولا فولتير ، وللثورة الاشتراكية لولا غوركي وللحركة الشيعية لولا الكُميت ولحركة الخوارج لولا الطرماح ؟ " (٢١)

لقد حدّدت هذه المجموعة الواعية موقفها الواضح بأنّ الأدب الذي تدعو إليه هو "أدب الشعب ، أدب يخدم الشعب في نضاله نحو سمو مستقبله ، أدب يُثير الوعي الذاتي في نفوس الشعب ، ويمنح الشعب فهم دوره وفهم العالم المحيط به وفهم التناقض الأساسي القائم في المجتمع ، بين غامسي اللقمة بعرق الجبين وسارقي هذه اللقمة ، هذا التّناقض الأساسي الذي من الضروري أن يكون مصدر الصراع في العمل الأدبي وينفخ فيه الحياة (٢٢).

وحتى يتحقّق الهدف لا بدّ من خلق أدباء تتوفّر فيهم الشروط ليكونوا أدباء الشعب مثل أن يملكوا الموهبة الأدبية والحسّ الفنّي وأن يمتلكوا ناصية اللغة لأنّه بدون التمكّن من اللغة لا سبيل الى اظهار الحسّ الفني والى افادة القارئ ، وشرط هذا الأدب أن يكون انسانيا تقدميا ، يسعى في طلب الحقيقة ويحسّ بتقاليد الشعب وبعاداته وأن يدرك أمانيه ومخاوفه وأحلامه ، وأن يخدم قضية تحرّر الشعب من الاستعباد السياسي والاستغلال الاقتصادي. ويعمل على احياء التراث الفكري العربي والاطلاع على الادب العالمي . فموضوع الادب "يجب أن يكون (الانسان) الذي هو أوج الطبيعة وأسمى تجمّع لثروة الطبيعة اللامتناهية وتجسّم قوانينها القهّارة التي لم تُستَكشَف بعد كما قال العالم

السوفييتي بافلوف" (٢٣).

هكذا كانت انطلاقة النواة الأولى للحركة الثقافية العربية في البلاد لتُواجه الواقع الصعب وتبث الثقة وروح التحدّي في أفئدة الجماهير .

وبالفعل بدأ أفراد هذه المجموعة الواعية يتصدّون بمقالاتهم وشعرهم وقصصهم لكل عمل تقوم به السلطة ضدّ الجماهير العربية . فنُشرت المقالات حول وضع التعليم العربي ومطالبة السلطات بتغيير نهجها الهادف الى التجهيل . كذلك نشرت المقالات والدراسات العديدة ووزّعت المناشير الفاضحة لسياسة مصادرة الأرض والاستيلاء عليها بمختلف الحجج والقوانين ، وضد عملية ترحيل بعض المواطنين من قراهم الى قرى أخرى ، وضدّ السياسات المتّبعة لدقّ اسفين التفرقة .

وكان الاهتمام الكبير أيضا بنشر العديد من المقالات والقصائد المنقولة عن صحف تصدر في العالم العربي ، ونشر العديد من التراث العربي القديم ومن الأدب العالمي المترجم . وكل هذا لخلق جيل عربي مثقف .

وكان الشعر الحَربَة الحادّة المواجهة للسياسة الحكومية .. وكانت القصائد الحماسية تُلهب مشاعر الجماهير .. وأصبحت المهرجانات الشعرية التي تُقام في بعض القرى والمدن مناسبات وطنية تستذكرها الجماهير وتنتظرها ، حيث كان الشعراء يحضرون إلى ساحة القرية مُتَحدّين الحاكم العسكري ومغافلين أجهزة الشرطة وعيونها، حيث يكون في استقبالهم العشرات والمئات من رجال ونساء وفتيان وفتيات البلدة، ينشدونهم القصائد التي تفتح آفاق المستمعين على عوالم أخرى فتُثير المَواجع والذكريات، وتُذكّر بالغُيّاب وتُحرّضُ على الواقع وتدفع للتغيير وإلى التعلّق بالأمل وانتظار ا لغد الأفضل .. فقد تصدى الشعراء لكل خطوة حكومية ، والعديد من القصائد كتبت ضد مصادرة الأرض وضد أنظمة الحكم العسكري وسياسة الطرد والسجن ..

فالشاعر راشد حسين يصرخ متحديا قانون المصادرة للأرض قائلا :

الله أصبح لاجئا يا سيدي صادر اذن حتى بساط المسجد

وبِع الكنيسة فهي من أملاكه وبِع المؤذّن في المزاد الأسود(٢٤)

ومثله يستعيد الشاعر سميح القاسم بمسرحيته "موسم زيتون" التي كتبها باللغة العامية أمجاد أوّل معركة دامية واجهت فيها الجماهير العربية قوات الشرطة ، هذه المعركة

التي خاضـها أهل بلدته "الرامة" عام ١٩٥٣ ضـد موظفي الحكومـة والشـرطة الذين جاءوا ليحجزوا على منتوج الزيت والزيتون، مصدر المعيشـة الوحيد لأهل البلدة في تلك السـنوات.

وينطلق الشـاعر محمود درويش متحدّيا الصوت العنصري بقصـيدته التي تحولت الى النشيد القومي للجماهير العربية :

سـجّل

أنا عربي

ورقم بطاقتي خمسون ألف ..(٢٥)

ويُعلن الشاعر توفيق زياد موقف الجماهير الصـامدة المتحدية:

بأسناني ،

سـأحمي كلّ شبر من ثرى وطني،

بأسناني .

ولن أرضـى بديلا عنه

لوعلّقت

من شريان شرياني(٢٦)

وتُردّد الجماهير في كل اجتماع واسـع لها مع الشـاعر سميح القاسـم:

مُنتصب القامة

أمشـي

مرفوع الهامة

أمشـي

في كفّي قصفة زيتون

وعلى كتفي نعشـي

وأنا أمشـي منتصب القامه

مرفوع الهامة (٢٧)

لقد كانت يقظة المثقفين شديدة وسـارعوا ليعلنوا موقفهم ويعملوا على تنبيه الجماهير وشـحنها بالثـورة والتمـرّد . فـعندمـا بدأت حـرب العـدوان الثـلاثي عـام ١٩٥٦ بمشـاركـة إنكلترا وفرنسـا وإسـرائيل ضـدّ مصـر، ارتفعت الأصـوات العالية المنددة والمعلنة تَضـامنها

مع الشعب المصري والقيادة المصرية وعندما قامت قوّة إسرائيلية بقتل ٤٨ مواطنا من سكان قرية كفر قاسم الإسرائيلية عام ١٩٥٦ كان المثقفون ، وفي مقدمتهم الشعراء أوّل مَن وقفوا ليُعلنوا الموقف المُتحدّي القويّ للجماهير العربية .

وردّا على قرار الحكومة عام ١٩٥٦ فَرْض " قانون التجنيد الاجباري " على أبناء الطائفة الدرزية وخَلْق ما يُسمّى " بالقومية الدرزية " كان الردّ قويا وواضحا من خلال المقالات العديدة التي نُشرَت لتُؤكد عروبةَ الدروز وموقفهم القومي . وعقدت الاجتماعات في مختلف القرى وخرج عشرات الشباب في مظاهرات صاخبة اصطدمت مع قوات الأمن وتَشكّلت لجان شبابية للتّصدى لهذا القانون (٢٨) .

وكانت مظاهرات أوّل أيار من كل سنة مناسبة لدى الجماهير العربية لاعلان موقفها الرافض والمتحدي حيث تُسمع الخطب القوية وتُنشَد الأناشيد وتُلقى القصائد .

واذا كان الشعر هو المميّز للحركة الثقافية في سنوات الخمسين، فان سنوات الستين شهدت اتساع الحركة الثقافية لينضم الى عشرات الشعراء العديد من كتاب الدراسات والمقالات الصحفية والقصص والروايات ، واتّسعت الحركة الثقافية لتشمل قطاعات واسعة وتتوزّع على الكثير من أماكن تواجد الجماهير العربية من المثلث حتى الجليل . ومع تزايد عدد خريجي المدارس الثانوية وطلاب الجامعات ، ازداد تأثير الحركة الثقافية على الجماهير . وزاد التفاعل بين المثقفين وقطاعات الناس، وقد تشكلت العديد من الروابط الأدبية ولكنها كانت لا تُعمّر طويلا .

لكن التفاعلات اليوميّة والأحداث العربية والعالمية وزيادة الوعي وتحرّك الجماهير الدّائم هيّأ الشارع العربي لخوض تحدّيات أكبر. وقد تمثّل هذا عن انبثاق أوّل تنظيم سياسي عربي وهو " الجبهة العربية " ، وقد غيّر الاسم نتيجة لرفض القائمقام تسجيل الجبهة بهذا الاسم إلى " الجبهة الشعبية " وأعلن عن قيامه رسميّاً في كل من عكا والناصرة في تموز عام ١٩٥٨ ، وكان الهدف أن يُشكل هذا التنظيم القيادة العليا للجماهير العربية بتنظيماتها المختلفة للدفاع عن حقوق الجماهير العربية ومعالجة شؤونها المختلفة.

أمّا الحدث الأهمّ في بلورة الوعي القومي للجماهير العربية في إسرائيل فقد كان على أثر الانشقاق الذي حدث ما بين الأحزاب الشيوعيّة والحركة القومية العربيةالممثّلة في شخصية الرئيس جمال عبد الناصر في العالم العربي عام ١٩٥٨، حيث حدث الانشطار ما

بين التيّار القومي العربي والحزب الشيوعي وأعلن عن قيام " حركة الأرض" عام ١٩٥٩ التي يقول عنها الدكتور سامي مرعي: "انّها أول مبادرة وطنية فلسطينية تُعلن الهوية دون تردّد عبر جميع قطاعات الشعب الفلسطيني أينما تواجدت " . ويؤكد : " بالرغم من أنّ القضاء الإسرائيلي أخرجها عن إطار القانون، لا بل ويُمكن القول لأنهّ أخرجها ، بقيت رمزاً وذكرى تخلق ديناميكيّات وتفاعلات بالغة الأهميّة في تصعيد وبلورة الوعي القومي والثقافي وفي الصياغة الخلاقة للهوية العربية الفلسطينية ليس في إسرائيل فحسب وإنّما في أعماق الوعي الفلسطيني العام أيضاً" . وقد نجحت حركة **الأرض** في إصدار ثلاثة عشر عدداً من جريدتها الناطقة باسمها ولكنها على أثر تقدّمها عام ١٩٦٤ للحصول على اعتراف رسمي كجمعيّة عثمانية باسم " حركة الأرض" رُفض طلبها وأعلنَت كجمعيّة خارجة على القانون ويمنع أي نشاط لها.

تفاعل الأحداث في العالم العربي والعالم الثالث وأمريكا اللاتينية كان يشد الجماهير العربية ويجعلها في انشداد دائم الى ما يحدث في العالم وتُتابع انتصارات حركات التحرر القومية ، وكان الشعراء بشكل خاص صوت هذه الجماهير وبوصلتها في هذا التواصل الدائم . فقد غنى الشعراء لكل الثورات في العالم العربي وأفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية .. وأصبح تشي جيفارا ولومومبا وكاسترو وتيتو ونهرو ونيكروما أبطالهم المُفضّلين الى جانب الزعيم غير المنازَع جمال عبد الناصر . وكما أنشد الشعراء لبن بيلا وجميلة بوحَيْرد وأبطال السويس وبور سعيد واليمن والعراق ولبنان وسوريا أنشدوا لأحرار الفيتنام والكونغو وكوبا وكمبوديا واريتيريا والأرجنتين ..

هذا التفاعل رفع من وعي الجماهير وجعلها تكون جزءا لا يتجزأ من حركات التحرّر القومية .. ودفعها بكل قوة لتُواجه السياسة التي اضطرت تحت الضغط المحلي والعالمي على الغاء قانون "الحكم العسكري" عام ١٩٦٦ .

لهذا لم يكن غريبا أن يبقى صوت الجماهير العربية الباقية فوق أرض وطنها في الجليل والمثلث والنقب هو الصوت العربي القوي الواثق المتفائل المبشر بالنصر وسط واقع الحزن والبكاء واليأس والخنوع والتساؤل الذي حطّ على العالم العربي بعد هزيمة الأنظمة العربية في الخامس من حزيران عام ١٩٦٧ . فبينما واجه مثقفو العالم العربي هذه الهزيمة بجَلْد الذّات والتساؤل والبكاء والهرب من الوطن أو اللجوء الى حانات الخمر .. فان صوت

الجماهير العربية داخل إسرائيل كان واضحا وقويّا ، من خلال قصائد محمود درويش المعلنة أن هذا الذي كان ليس الاّ "آخر الليل" ومن خلال قصائد سميح القاسم أن ذلك ليس الاّ مقدمة لـ" دخان البراكين" ومن خلال "سداسية الأيام الستة" لاميل حبيبي و"جسر على النهر الحزين" لمحمد علي طه ، و "الأصيلة" لمحمد نفّاع ، ومن خلال المئات من المقالات والدراسات والقصص والقصائد التي تحدّى بها المثقفون ما نتجت عنه هزيمة الأنظمة العربية في حزيران .

هذا الموقف الواضح القوي الواثق الواعي للمثقفين أثّر في العالم العربي ومُثقفيه وغيّر من موقف هؤلاء تجاه الحركة الثقافية العربية والجماهير العربية داخل إسرائيل، وبدأت جسور التّواصل تقوى وتمتد، خاصّة بعد حرب حزيران ١٩٦٧ حيث انضم إلى العرب مواطني دولة إسرائيل و تحت الحكم الاسرائيلي ما يزيد على مليوني فلسطيني في قطاع غزة والضفة الغربية وآلاف العرب السوريين والمصريين.

لم تتراجع الجماهير العربية ،وأقصد مواطني دولة إسرائيل، عن مواقفها المواجهة للسياسة السلطوية على أثر الانتصار الكاسح للجيش الإسرائيلي على مختلف الجبهات، بل على العكس زادت من تصدّيها وتحدّيها. وأخذت تعمل على خلق تلاحم بين الجماهير الفلسطينية في الأراضي المحتلة وجماهير الداخل، وأصبحت المعركة على مختلف الجبهات ، وفي صلبها المطالبة بتحرير الأراضي العربية وإقامة الدولة الفلسطينية المستقلة وعودة الاجئين وتحقيق السلام العادل ما بين الدول العربية وإسرائيل.

انتصار الجيش الإسرائيلي واحتلال كامل التراب الفلسطيني، إضافة إلى أراض مصرية وسوريّة وفيما بعد لبنانية،خلق واقعا جديداً لم تعهده الجماهير العربية داخل دولة إسرائيل، فهذه الجماهير التي كانت تَعتبر نفسها أقليّة مهضومة الحقوق تُحارب في سبيل نيل حقوقها وتأكيد هويّتها القوميّة، وجدت نفسَها جزءاً لا يتجزأ من شعب وحّد الاحتلال بين أجزائه، فعاد العربي ساكن الجليل والمثلث والنقب ليشعر بانتمائه الفلسطيني القوي ولم يعُد العربي المُنبَتّ عن وطنه وأهله، فزادت ثقته بنفسه وزادت مطالبته بحقوقه وحقوق أبناء شعبه في الحريّة والاستقلال وإقامة الدولة المستقلّة.

حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ وتحقيق النصر العربي الأوّل – رغم محدوديّته – على الجيش الإسرائيلي لم تُغيّر من سياسة الحكومات الإسرائيلية الهادفة لمصادرة الأراضي

العربية. وقد استمرّت هذه السياسة بمختلف القوانين والأساليب، وبالمقابل اشتدّ ردّ فعل مثقفي الجماهير العربية بصوت أعلى وتحدّ أكبر، وزاد وعي الجماهير بأهميّة المعركة ممّا وحّد مختلف شرائح الشعب في خندق واحد ضدّ سياسة المصادرة.

وعلى الساحة بدأت تتشكّل التنظيمات العربيّة وأهمّها "لجنة رؤساء السلطات المحليّة العربية" عام ١٩٧٤، و"لجنة الدفاع عن الأراضي العربية" عام ١٩٧٦. وتبرز تنظيمات سياسية أكثر راديكاليّة وتشدّداً من الحزب الشيوعي مثل تنظيم حركة "أبناء البلد" الذي استطاع أن يحتلّ المواقع القياديّة بين طلاب الجامعات، خاصة في الجامعة العبرية في القدس، ويُحرج قيادات الحزب الشيوعي في الطّروحات الثورية والقوميّة والمُتحدّية التي يطرحها. وأخذت الحركة الطلابيّة العربية تفرض وجودها على المسرح السياسي في كل بلدة عربية وتطرح الآراء وتُحدّد الأهداف، ووجدت هذه المواقف والطروحات طريقها إلى الجماهير الواسعة بالمقالات العميقة والمُسهبة التي ينشرها تنظيم "أبناء البلد" في صحيفته التي يُصدرها وبالقصائد الملتهبة التي يُبدعها شعراؤه الشباب من الجيل الثالث والمحاضرات والندوات ومختلف وسائل الإعلام.

وكان التحوّل الكبير في حياة الجماهير العربية يوم ٩ كانون أوّل عام ١٩٧٥ يوم نجح الشاعر توفيق زيّاد في انتخابه رئيسا لبلديّة الناصرة التي أصبحت عاصمة العرب داخل دولة إسرائيل ونبض قلوبهم حيث أخذت التفاعلات السياسية والثقافيّة والاجتماعية تتخذ نهجَها المُتسارع في المواجهة مع السياسة السلطوية المتحدية، وتدفع بالأمور إلى نقطة التصادم الذي حدث أخيرا يوم الثلاثين من آذار عام ١٩٧٦، في اليوم الذي تصدّت فيه الجماهير العربية لسياسة مصادرة الأرض العربية، وخرجت الجماهير في معظم القرى العربية لتتصدّى لقوات الجيش والشرطة وسقط ستة شهداء وجُرح العشرات واعتقل المئات.وأصبح هذا اليوم يُشكّل نقطة تحوّل في علاقة الجماهير العربية في إسرائيل مع السلطة ويشكّل قمّة انتصار حركة الوعي العربية للجماهير التي حققتها هذه الجماهير بفضل الحركة الثقافيّة الواعية الممثلة بالشعراء والكتاب والنقاد والباحثين والفنانين والصحفيين والسياسيين والطلاب الذين نجحوا بمثابرتهم الدؤوبة على مدار ما يُقارب عقدين ونصف من الزمن على تَرسيخ الانتماء العربي لهذه الجماهير الباقية فوق تراب وطنها والمحافظة على هويتها القومية.

هذه العلاقة المشحونة ما بين الجماهير العربية والحكومات الإسرائيلية لم تتغير طوال السنوات اللاحقة رغم إبرام معاهدة الصلح بين مصر وإسرائيل عام ١٩٧٨، حيث أن التطوّرات السياسية في الصراع الإسرائيلي – الفلسطيني أخذت تزداد سوءا متمثلة في الهجوم الإسرائيلي المتكرّر على لبنان ومن ثمّ الغزو الإسرائيلي للبنان وإخراج القيادة والكوادر الفلسطينية عام ١٩٨٢، وتبعتها لإنتفاضة في الأراضي المحتلة التي عرّت الاحتلال الإسرائيلي أمام الرأي العام العالمي، ثم كانت حرب الخليج التي قلبت الموازين الدولية ومراكز القوى بانهيار الأتحاد السوفييتي وكل المعسكر الاشتراكي.

الإشارات

١ – إميل توما : طريق الجماهير العربية في إسيرائيل – ص٤٦

٢ – مجلة دي نيو جوديا ١٩٣٧ وإميل توما : طريق الجماهير العربية الكفاحي في إسرائيل، ص ٤٦

٣ – يسرائيل شاحك : الصهيونية على لسان زعمائها ص ٥٠

٤– إميل توما – طريق الجماهير العربية الكفاحي في إسرائيل، ص٤٨

٥ – صحيفة "دافار" ١٩٨١/٦/٧

٦– إميل توما : طريق الجماهير العربية الكفاحي في إسرائيل ص ٤٦

٧– مجلة "هادور" ١٩٥٠/١/١٩

- راجع Ɨ ° ″ ƗøØ ØÆƗ

٩ – يوسف فايس : يوميـاتي ورسـالتي إلى الأولاد – إصدار متسادة الجزء ٣ ص ٤٩٣ والمجلد الرابع ص ١٥٤ – ١٥٧

١٠–صحيفة "هآرتس" ١٣ آذار ١٩٧٠

١١– صحيفة "يديعوت أحرونوت" ٢٤ كانون الأول ١٩٧٩

١٢– صحيفة "هآرتس" ٢ كانون الأول ١٩٨٠

١٣ – الهوية ، والتعايش ومضامين التعليم : اللجنة القطرية لرؤساء المجالس دراسة سامي مرعي ص ٣٠ – ٣١

١٤ – المصدر السابق : ص ٣١ و وصبري جريس : العرب في إسرائيل ،ص ١٣٩ (بالعبرية) ، ومنهاج التدريس للصفوف الأول – الرابع، إصدار وزارة المعارف أكتوبر ١ ١٩٥٧ص ٢ – ٣(بالعبرية).

١٥ – منهاج التدريس للصفوف الخامس – الثامن : إصدار وزارة المعارف نوفمبر ١٩٥٩ (بالعبرية) وصبري جريس ص ١٣٩

١٦–صحيفة "هآرتس" ١٩٦١/٤/٤

١٧ – الكتاب الإحصائي السنوي لإسرائيل (بالعبرية) ١٩٦١ ص ٤٥٩ و١٩٦٢ص ٤٩٤ و١٩٦٣ ص ٦٤٨ و ١٩٦٤ ص ٥١٧

١٨ – Michman . Joseph: Cultural policy in Israel - Paris UNESCO 1973 p.64

١٩ – مجلة "هادور" ١٩ كانون الثاني ١٩٥١
٢٠ – نبيه القاسم : واقع الدروز في إسرائيل ص ٤٢
٢١–مجلة "الجديد" العدد الثالث ١٩٥٣
٢٢ و ٢٣– المصدر السابق
٢٤ – راشد حسين – الأعمال الشعرية الكاملة – قصيدة "الله لاجيء" ص ٢٢٠
٢٥ – محمود درويش : أوراق الزيتون – تموز ١٩٦٤ ص ٥
٢٦– توفيق زياد، الجديد ٢/١٩٦٦ ومجموعة "أشدّ على أياديكم ص ٣٨
٢٧– سميح القاسم : دخان البراكين – ١٩٦٧ ص ٣٢
٢٨– نبيه القاسم: واقع الدروز في إسرائيل ، ص ٣٩–٤٣

مجلة "الجديد" والموقف من الإبداع الأدبي

تُعتبر مجلة "الجديد" مصدرا أساسيا لدراسة الحركة الثقافية العربية في إسرائيل لأنها كانت رائدة المنابر الثقافية التي صدرت في البلاد وظلّت على مَدار السنوات التي تقترب من الأربعين مُواكبة هذه الحركة بكل ما رافقَها من قَفزات وكَبوات، وكانت "الجديد" المجلة التي حضنت الأقلام الواعدة والتي عرفنا على صفحاتها رموز الحركة الأدبية في مختلف مجالات الإبداع.

لقد صدر العدد الأو ل من "الجديد" في شهر تشرين أول عام ١٩٥١، ثم صدرت باسم "الاتحاد" كملحق ثقافي شهري لجريدة "الاتحاد" ثم بشكلها المنتظم المستمر في شهر تشرين الثاني ١٩٥٣ حتى العدد الأخير، إيلول ١٩٩١.

وقد شرح القائمون عليها في العدد الأول منها الدافع لإصدار المجلة بالأسباب التالية:

١ـ تعاظم انتشار صحيفة "الاتحاد" وإهمالها الناحية الأدبية والفنية والتركيز فقط على نشر الأنباء المحلية والعالمية والتعليقات السياسية.

٢ـ الموقف الإعلامي المعادي للاتحاد السوفييتي والمنظومة الاشتراكية والرغبة في تعريف القراء على هذا العالم الذي هو أمل المعذبين والمضطهدين.

٣ـ الواجب في تعريف الشعب بالعالم الجديد، حيث الانسان أثمن رأسمال، بأدبه وفنه وطُرق حياته.

وتعهدوا أيضا أن يُقَدّم في هذه الملاحق الأدبية إلى القراء "أدب الحياة والسلام والأمل من نتاج مختلف الشعوب، قاصيها ودانيها، بما فيها الشعبان اليهودي والعربي. وأن ما يُقَدّم سيكون مُتنوعا من أدب منظوم ومنثور، وقصص ومحاضرات ومقالات ونُتف عن الحياة الأدبية في مختلف الأقطار".

وحُدّد الهدف وراء إصدار هذه المجلة بالقول "إننا نرجو، وسنعمل جهدنا من أجل أن يكون "الجديد" محورا تَتجَمّع حوله أقلام جريئة شريفة تُدرك أن رسالة الأدب هي: " الارتباط بالنضال الثوري الذي تشنه الطبقة العاملة، والالتحام العضوي بين أماني الفرد الإبداعية ومصالح الناس العاديين (كما قال (لينين). "وإنّ تاريخ الثقافة يدل بوضوح على أن الفنان لا يُحقّق الحرية الحقيقية في مجهوده الإبداعي ولا يشعر بالرضا

الصادق على إنتاجه ، إلاّ إذا خدم بإخلاص مصالح هؤلاء الذين يصنعون التاريخ الذين يُبدعون كل ثروات الأرض المادية ـ الجماهير الكادحة " .

هكذا يتّضح الهدف وراء إصدار مجلة " الجديد " ، وهو أن تقوم بتزويد الجماهير المثقفة والمتعلمة بالنتاج الإبداعي الذي يخدم الفكر الذي ينادي به القائمون عليها ، وأعني بالتحديد (الحزب الشيوعي الإسرائيلي) لأن هذا التزويد يؤدي إلى التعبئة والتّوعية وضَمان وقوف هذه الشرائح إلى جانب الحزب في مختلف المواقف والمعارك ، ويُساعد على انتشار الحزب أكثر وزيادة قوته الجماهيرية .

وعاد القائمون عليها بعد عودتها للصدور بشكل منتظم وباسم " الجديد " منذ شهر تشرين الثاني ١٩٥٣ ليُحدّدوا الهدف التوجيهي الذي على مجلّة " الجديد " تحقيقه في قيادة الحركة الفكريّة والثقافيّة والأدبيّة للجماهير العربيّة في إسرائيل ، لأنّ " للأدب الدور المهم " في نضال الجماهير " كما قال إميل حبيبي ، وحدّد أيّ أدب تدعو إليه " الجديد " بقوله: " إنّ الأدب الذي ندعو له هو أدب الشعب. أدب يخدم الشعب في نضاله نحو سموّ مستقبله، أدب يُثير الوعي الذّاتي في نفوس الشعب، ويمنح الشعب فَهم دوره وفَهم العالم المُحيط به، وفَهم التناقض الأساسيّ القائم في المجتمع، بين غامسي اللقمة بعرق الجبين وسارقي هذه اللقمة، هذا التناقض الأساسيّ الذي من الضروريّ أن يكون مصدرَ الصّراع في العمل الأدبيّ الذي نُنشده ، وينفخ فيه الحياة. " (١)

ويُحدّد المسار الذي على المُبدع أن يتّخذه بقوله :

" يجب أن يكون الأدب إنسانيّا ، تقدميّا، اشتراكيّا في مضمونه ، وقوميّا في شكله. ويؤكّد أنّ على الأديب أن يذكر دائما أنّ الأدب هو أدب النفس وأدب الدّرس. وأنّه بدون الموهبة الأدبيّة والحسّ الفنيّ لا يكون الأدب. ولكنّه ليس أحاسيس فنيّة فقط، فمضمونه لا يُنقل إلاّ بواسطة اللغة، وبدون التّمكّن من اللغة، بمفرداتها وتشابيهها وأسلوبها القوميّ الخاصّ ، وكل ما ادّخرته اللغة خلال خبرة تاريخية طويلة الأمد ، لا سبيل إلى إظهار الحسّ الفنيّ وإلى إفادة القارىء ".(١).

وأكد أيضا على أهمية حمل رسالة الأخوة اليهودية ـ العربية والتعبير عن مظاهر النضال المشترك اليهودي العربي في إسرائيل ونقل مختارات من آداب الشعوب الأخرى ، من الآداب التي تُثير روح التفاؤل في نفوس الشعب والتضامن الأممي ، وأهمية التعرف

على آداب الشعب اليهودي والاهتمام بشكل خاص بتعريف القراء على الأدب السوفييتي الاشتراكي لأن هذا الأدب كما يراه ، "هو أدب الانسان الاشتراكي الذي يبني شيوعية الرخاء ، هو أدب الغد لكل الشعوب ، هو أدب الانسان المنتصر على القيود التي كبّله بها الانسان وكبّلته بها الطبيعة" (١).

ورغم أن "الجديد" لم تستطع جَذب بعض الأقلام الأدبية من بين المثقفين العرب باعتراف رئيس التحرير الذي برّر ذلك بقوله: "قد يكون هذا لضيق صدرها غير المقصود ولهذا الإرهاب الأسود الذي يُعانيه المثقفون وغير المثقفين في ظل الحكومة القائمة والنظام القائم" (٢) إلاّ أنّ المجلة استمرّت في الصدور بانتظام وأن تؤدي دورها على الساحة الثقافية المحلية ، وتُؤكد على أهمية مساهمتها في الحركة الثقافية.

وقد أكدت "الجديد" من العدد الأول أيضا على أنها ستكون المنبر الثقافي الذي عليه تلتقي الثقافتان العربية والعبرية وتعمل على تأكيد الأخوة اليهودية العربية ، وبالفعل فقد طبقت ذلك عمليا ، إذ أن للمبدعين اليهود الذين قدموا من الدول العربية وخاصة العراق ، كان الدور الكبير في تحرير أعداد "الجديد" في السنوات الأولى ، وتزويدها بمختلف أنواع الإبداع حتى كان لا يصدر أيّ عدد من "الجديد" إلا وفيه قصة لسمير مارد أو قصيدة لدافيد صيمح أو مقالة لإبراهيم خياط أو متابعة أو قصيدة لساسون سوميخ وغيرهم.

لكن هذه المساهمة للمبدعين اليهود الوافدين من العراق أخذت تتراجع حتى انعَدَمت منذ السنوات الأولى للستينات ، وقد تكون لذلك أسباب عديدة . وكان لانتماء "الجديد" للحزب الشيوعي الإسرائيلي الذي كان في تلك السنوات صوت المعارضة التامة للسلطة الأثر في ابتعاد العديد من المُبدعين البارزين من العرب على الساحة الثقافية مثل ميشيل حداد ، جمال قعوار ، طه محمد علي ، مؤيد إبراهيم ، جورج نجيب خليل وغيرهم الذين مثلوا التيّار المسالم غير المُصادم .

وكان لموقف الحزب الشيوعي الإسرائيلي المؤيد للموقف السوفييتي المعادي لعبد الناصر والمساند حكم عبد الكريم قاسم في العراق إثر الأطاحة بالحكم الملكي وقيام الحكم الجمهوري عام ١٩٥٨ وما رافق ذلك من التركيز الإعلامي القوي ضد حكم عبد الناصر ، والذي وصل ذروته بصدور كتاب الدكتور إميل توما **ثورة ٢٣ تموز في عقدها**

الأول ،حيفا ١٩٦٢، أن أخذ بعض الشعراء الذين نشروا قصائدهم في " الجديد " ومثّلوا التيار القومي المؤيد لعبد الناصر مثل ، راشد حسين وحبيب قهوجي ، يبتعدون عن " الجديد " ويبحثون عن المنابر الأخرى ، وقد كان هذا الموقف وراء عدم نشر سميح القاسم لقصائده في صحف الحزب وتَوجّهه لمنابر أخرى مثل مجلة " الفجر " لعدة سنوات . لهذا انحصر كُتّاب وشعراء "الجديد" في السنوات الأولى في المنتمين للحزب الشيوعي وأنصاره أمثال الشعراء : عيسى لوباني ، عصام العباسي ، حنا إبراهيم ، حنا أبو حنا ، توفيق زياد ، دافيد صيمح ، وساسون سوميخ ، والقصصيين أمثال : سمير مارد . والكتاب أمثال : إميل حبيبي ، جبرا نقولا ، إميل توما ، إبراهيم خياط ، علي عاشور وصليبا خميس .

أما سنوات الستين فقد شهدت تحوّلا كبيرا في مسيرة مجلة "الجديد " على مختلف الأصعدة ، فرغم إعلانها وتأكيدها على تمسكها بالمبادىء الأولى التي طرحتها في أعدادها الأولى ، إلا أن الواقع السياسي والاجتماعي والثقافي المحلي والعربي والعالمي ، بدأ يفرض نفسه أيضا على هوية مجلة " الجديد " . وقد برز التحوّل الكبير في الانسحاب التدريجي الذي يكاد يكون كلّيا للمُبدعين اليهود ، حيث لم نعد نقرأ لأيّ من الأسماء التي عرفناها سنوات الخمسين، وقد انتقل معظمهم للكتابة باللغة العبرية ، وكثير من المبدعين العرب ابتعدوا عن المجلة لاشتداد الصراع بين التيّارات السياسية في العالم العربي ، وتأثير ذلك على الأقلية العربية في إسرائيل .

لكن سنوات الستين شهدت ازدياد عدد المبدعين الشباب في مختلف مجالات الإبداع ، ولأن " الجديد "أصبحت المنبر الثقافي المثابر والمنتظم الوحيد بعد اختفاء مجلات "المجتمع "و " الفجر " و " حقية الأمر " و "الهدف" وعدم استمرار مجلات أخرى صدرت مثل " هذا العالم " ، " المصور " ، " الأخبار "، "آفاق" فان العديد من أصحاب الأقلام المبدعة اختاروا "الجديد "لتكون منبرهم الأدبي ، وهذا مما أعطى "الجديد" المكانة الخاصة في الحركة الثقافية المحلية ، وعلى صفحاتها لمعت الأسماء التي كانت القائدة للحركة الثقافية المحلية مثل : إميل حبيبي ، إميل توما ، جبرا نقولا، صليبا خميس ، محمود درويش ، سميح القاسم ، توفيق زياد ، سالم جبران ، محمد علي طه ، محمد نفاع ، زكي درويش ، توفيق فياض . وأصحاب مواهب مبشرة مثل فوزي عبد الله ، يوسف حمدان ، سليم مخولي ، فتحي قاسم ، فاروق مواسي ، نزيه خير ، نعيم عرايدي ، نايف سليم ، هايل عسا قلة وغيرهم .

مجلة "المجتمع" والصوت الآخر
في الحركة الثقافية العربية داخل إسرائيل

شكّلت مجلّة "المجتمع" بصدورها عام ١٩٥٤ الصوت الآخر للحركة الثقافية العربية داخل إسرائيل، إذ أنّ القائمين عليها حدّدوا الأهداف التي سينتهجونها ويسعون إليها خلال الأعداد الأولى لصدورها. يقول صاحبها ومحررها الشاعر ميشيل حداد في مفتَتح العدد الأول (٣): "ستسير "المجتمع" قُدما لتُنير السبيل لَمن ظلّلت أعينهم غشاوة الأيام الغابرة، ليبصروا مجتمعهم على ضوء الواقع، وينفضوا عن أنفسهم غبار الماضي وترّهاته، ويُرافقونا في طريق ثقافة صحيحة، نحو مجتمع أفضل. هذه "المجتمع" تولد اليوم، متّخذة من مآسي الماضي دروسا نافعة، مُتّجهة نحو ميدان الخدمة الثقافيّة، محاولة جهدها أن تعالج كافّة مواضيع الأدب والعلم والاجتماع. وتهدف المجتمع إلى تشجيع الانتاج المحلّي، وإلى نشر زبدة ما يُنتجه الكتّاب العرب واليهود وغيرهم من العلماء والأدباء في مُعظم أقطار العالم. وتصوّر "المجتمع" مشاكل المجتمع وتبحثها وتُعالجها. وتدرس قضيّة المرأة كجزء لا يتجزأ عن قضايا المجتمع بأسره. وتَعمل على تقريب وجهات النظر في الحياة الاجتماعيّة بين المواطنين العرب واليهود بتبادل الآراء.

ويُحدّد المحرر في العدد الثاني (٤) مفهوم القائمين على مجلة "المجتمع" للأدب بقوله: "إنّ المقياس الأوّل الذي نقيس به أدب مجتمع ما، هو موقف هذا الأدب من هذا المجتمع، موقفه من شؤونه وآماله ومشاعره، باعتباره الصورة المعبّرة عن المجتمع، والمُمثّلة لنفسيّته ورغباته ونشاطه. فليس بإمكان الأدباء أن يتجاهلوا أوضاع المجتمع، كما ليس بالإمكان أن نوافق على ما يعتقد به بعضهم، في أنّ الطريقة المُثلى في ممارسة الأدب هو أن يقبعوا في أبراج عاجيّة يتخيّلون ويُسجّلون. كما أنّنا لا نرى أنّ من واجب الأدباء تصوير شؤون الناس وتسجيل خواطرهم وحسب، وإنّما هو دراسة ظروف مجتمعهم وتحليل ظواهره المختلفة وانتقاء العلاج الناجع وإسداء النصيحة المُخلصة وإرشاد الناس إلى خير السبل وأصلح الوسائل بأساليب شيّقة سهلة. فحكم المجتمع على الأدباء يأتي بالنسبة إلى موقفهم من المجتمع: من أحواله وآماله ومشاعره، من أفراحه وأتراحه، وكيفيّة معالجة هذه الاعتبارات. ونحن نريد لمجتمعنا هذا أدبا يأخذ بالاعتبار مصلحة

المجتمع بأكثريته ، أدبا يستهدف خدمة الناس وتوجيه أفكارهم ورفع مستواهم ، أدبا جديدا يصور ويُعالج ، مختلف شؤون حياتنا بإخلاص وأمانة .

ويُحاول المحرر في كلمته التي كان قد ألقاها في افتتاح المهرجان الأدبي الذي أقامته مجلة "المجتمع" في حيفا يوم ٢٨ أيار ١٩٥٥ ونشرها في عدد حزيران ١٩٥٥ توجيه الشعراء والكتّاب بقوله :

"لست ممّن يقولون إنّ الأدب مجرّد هواية يتلهى بها الأديب في خلوته ويتّخذها وسيلة لبث مشاعره وميوله واتجاهاته ، وإنّما أرى أنّ الأدب وسيلة للتعبير عن واقع الحياة ، ووسيلة لدراسة هذا الواقع ومعالجته . فالحياة هي موضوع الأديب وهدفه ، يبحث واقعها ويُناقش مشاكلها ويضع الحلول لتحسين أوضاعها ، لتصبح للناس جديرة بالاهتمام ، وجديرة لأن يحياها كل إنسان بسعادة واطمئنان . إنّ اتجاه أدبائنا نحو هذا الواقع ، لهو الاتجاه الصحيح والضروري ، فالتاريخ يتطوّر والحضارة تسير ، والمخترعات تتقدّم ، فإن لم يتبصّر الأدباء في واقع التاريخ والحضارة والمخترعات ، ويهتموا بها كحقّ لكل إنسان أن يستفيد من نتائجها ، لن يكونوا أدباء ، ولن تكون لهم أيّة رسالة ، ولن يخدموا إلاّ منفعتهم الخاصة التي لا تجدي أحدا ، وإنّما تكون ملهاة للمُترَفين من الناس ، وتَسلية للكسالى المُتواكلين . فنحن نريد من أدبائنا وشعرائنا أن يكونوا بين الناس لا فوقهم ، وأن يتصلوا بهم وينغمسوا في مجتمعهم ،فيكتشفوا واقعه ويدخلوا إلى صميمه ، ثم يصوّرونه بانطباعاتهم ويتعهدونه بمعالجاتهم ، التي تهدف إلى خير المجتمع وصالحه . فالأديب هو ابن الحياة ، الذي يشعر بما يُقاسيه الناس ، من صعوبات اقتصادية واجتماعية ، هو ابن الحياة الذي يشعر بما يتمتّع به الناس من سعادة ورخاء وطمأنينة ، والأديب الذي يتألّم لآلام الناس ويفرح لأفراحهم ، هو ذلك الأديب الذي نُريده بيننا ، والذي نُرحّب بإنتاجه فنقرأ له ونثق به ، ونؤمن برسالته . نحن لا نمنع أدباءنا وشعراءنا من أن يتغزّلوا ، فالحب غريزة في الانسان ، ولكن ما لا يُرضينا منهم ، هو أن يتخاذلوا أمام العاطفة ، فيعطونا صورا هزيلة للاستسلام والضعف ، والانشغال والسهر والبكاء والنحيب لهجران الحبيب . ولا نرى أيضا ما يمنع أدباءنا وشعراءنا من أن ينشروا إنتاجهم ، ويعتزّوا به ، ولكن ما لا يُرضينا منهم ، هو أن يطلعونا على الهزيل منه بمظاهر الغيبوبة الغامضة والخيال المريض . ولا نرى أيضا ما يمنع أدباءنا وشعراءَنا أن يتنافسوا ويتناقشوا ، ولكن ما لا يُرضينا منهم هو أن

يكونوا أنانيين مغرورين ، يهتمون بصغائر الأمور ويُهملون أوضاع إخوانهم في الانسانيّة . فللأديب رسالة، والناس يعتبرون الأديب حامل الرسالة ، ويهملون أدباء الزخرفة والتنميق ، أدباء المصالح والمظاهر .

ويُحاول محرر "المجتمع" في العدد السابع للسنة الثانية (٥) أن يُؤكّد على موقفه من الأدب ودور الأديب في الحياة بنقله لرأي الكاتب المصري سلامة موسى حول رسالة الأديب والمشاكل التي يجب عليه أن يبحثها والتي تتلخص في النقاط التالية :

١- المساواة التامة في الحقوق بين الجنسين .

٢- الضرورة المُلحّة في الاعتراف بحقّ الشباب والفتيات في الحبّ قبل الزواج وألاّ يكون هناك زواج إلاّ عن حبّ .

٣- مكافحة الغيبيات بألوانها المختلفة .

٤- مكافحة الاستعمار والاستغلال .

٥- إيجاد مجتمع علمي ينشأ على الإنتاج العلمي ويستنير بثقافة علمية .

وفي العدد العاشر من السنة الثانية (٦) تنشر "المجتمع" آراء لعدد من الكتّاب حول الأدب ورسالة الأديب .

الشاعر طه محمد علي يُدافع عن مواقف محرر المجتمع من الأدب ودور الأديب ، ويهاجم نظرية الالتزام في الأدب ويُقرّر : "بأن الالتزاميين يفرضون على الأديب أن يتلقى توجيها من خارج ذاتيّته ووعيه الفرديّ ويختلف هذا التوجيه باختلاف المكان والجوّ الذي يعيش فيهما الالتزاميون ، غير أنّه توجيه سياسيّ في أكثر الأمكنة والأجواء . فالأديب جزء من الحياة وهو لا بدّ أن يتأثّر بحياة مجتمعه ، فلندع الأديب يسجّل اختباراته الخاصّة في الحياة والمجتمع . وليثق الالتزاميون أن فرض اتّجاه معيّن على الأديب معناه القضاء على الأدب الرفيع" .

أمّا الكاتب فريد وجدي الطبري فيقول : "الأديب هو الذي يكتب ليعبّر عن الجمال أو الطبيعة أو كليهما مما انطبع في ذهنه وفي أعصابه ومشاعره لأنّه اعتاد على التعبير عنها أو لأنه اعتاد على تذوّق الجمال . وأمّا أنّ للأديب رسالة فيكاد يكون مفروغا منه ، وكون الأديب جزء من الطبيعة فرسالته كذلك جزء منها ، فهو إذن يكتب لنفسه وللطبيعة بذات الشعور والقوّة" .

ويقول الكاتب عرفان أبو حمد : "للأديب رسالة واجبة وليس اختياريّة ، وعلى هذا فلا أرى مكانا للقول إنّ الأديب يكتب لنفسه ، فليس الأدب غاية بحدّ ذاته وإنّما هو وسيلة كسب ماديّ أو إصلاح أو ترفيه أو دفاع عن مصلحة وليس هناك أدب يخرج عن هذا" .

ويعود محرر "المجتمع" في العدد الحادي عشر للسنة الثانية (٧) وبكل وضوح وجرأة ليوضح موقفه من دور الأدب ورسالة الأديب بقوله: "الرسالة الأدبية من وجهة نظرنا إنسانيّة قبل كل شيء تدعو إلى السلام والإخاء بين الشعوب وتُعبّر عن أوضاع المجتمع وتُعالج مشاكله وتُصوّر عواطف الناس وسلوكهم . والرسالة التي يجب أن يعمل لها الأدباء في كل مجتمع ، هي رسالة السلام ، والدعوة إلى السلام ، في سبيل العيش بأمان . هذا هو الشعار الذي يجب أن يرفعه جميع أدباء العالم وشعراؤه وقصّاصوه وكتّابه ، فلنستخدم أقلامنا في أداء هذه الرسالة بكل ما أوتينا من عزم وإيمان وعقيدة ، فكل أديب ذكيّ فنّان ، وكلّ أديب صادق العزم راسخ الإيمان والعقيدة ، لا يُمكنه إلاّ أن يشعر أن قضيّة السلام هي أولى القضايا التي يجب أن يتبنّاها وأن يجعلها رسالته الأولى التي لا رسالة قبلها" .

ويلخّص الشاعر جمال قعوار سكرتير تحرير مجلة "المجتمع" الموقف من الأدب ورسالة الأديب بقوله في العدد نفسه : "لا يختلف اثنان في أنّ السلام قضيّة رئيسية في العالم ، ولكن الشعر العربي يستطيع أن يُؤدي رسالته في مجالات ينجح عندها في إعطاء النتائج . فالقضايا المحلية ، الجهل في القرية العربية ومشكلة الفتاة هناك ، وقضيّة التفاهم والعيش بسلام بين الشعبين المشتركين في موطن واحد وتَوجيه النشء العربي وتحضيره ليحيا حياة أرقى ، فيها فهم للحياة وتقدير للمواقف أكثر ممّا عرف أسلافهم ، هذه القضايا هي رسالة الشعر العربي الرئيسية الذي يجب أن يكون مسبوكا بقالب فنّي يُدخلها إلى القلب فيظهر تأثيره ويعطي نتائجه" .

وفي العدد الثاني من السنة الثالثة (٨) يعلن محرر "المجتمع" بوضوح : "ستظلّ مجلتنا محافظة على حيادها فلا تتدخل بالحزبية ولا تعمل في الحقل السياسي بل تحافظ على رسالتها في رفع شعارات السلام والتّفاهم بين كافة المواطنين خاصة وشعوب العالم عامة وحمل مشعل الثقافة والمعرفة في كافّة الميادين ، ومعالجة قضايا المجتمع بشكل إيجابي وعلى الطريقة التي نرتئيها ، وليس لأحد أن يملي عليها أمرا أو يحشو فيها ما لا تحبّ ، فقد قرّرت المجتمع وآلت على نفسها ألاّ تَستغلّ وألاّ تحشر كتّابها في المجال الحزبي ، وألاّ

تنضوي تحت لواء أيّة كتلة سياسيّة " .

ويعود محرر "المجتمع" في العدد العاشر من السنة الرابعة (٩) ليُؤكد موقف "المجتمع" بأنّها ترى أنّ على الأدباء في الأوساط العربية عندنا (داخل إسرائيل) أن يُعالجوا مشاكل الحياة على ضوء أوضاعها وظروفها ، وبمزيد من الدقة والاتزان ، بحيث لا يتاجر بها في سبيل مَغنم لا يمتّ إلى رسالة الأدب للحياة في كثير أو قليل ، وبحيث لا تُصبح مشاكل حياتنا وظروفها وأوضاعها ، مواضيع يستغلها البعض ، ولا يستفيد منها المجموع . ويُؤكّد "إنّ الأدب للحياة لا يعني التزام وجهة نظر سياسيّة معيّنة ، ولسنا ندري لماذا يجب أن يُحشر الأدب في السياسة ، ولماذا يُطلب إلى كل أديب أن يكون سياسيا ، ولماذا لا يُترك للأديب أن يختار خدمة الحياة بشعارات أدبية قد تتّفق مع الشعارات السياسية وقد لا تتّفق . ويُهاجم الذين يدعون إلى التزام قضايا الجماهير في أدبهم بقوله : "إنّ المتاجرة بمشاكلنا وظروفنا وأوضاعنا عن طريق الأدب ، وإنّ إقحام الأدب في السياسة ، لكسب مَغانم سياسية مَحضة إنّما هو تجنيد الأدب لصالح السياسة ، وليس تجنيد السياسة والأدب لصالح الحياة . فنحن نؤمن بالأدب للحياة ولكننا نكفر بالأدب للسياسة فقط ، نحن نؤمن بالأدب يخدم المجتمع ، نحن نؤمن بهذا ضمن الوسائل التي تُساوي أفراد المجتمع وتَعدل بينهم وتُقرّب وجهات نظرهم ، وقد تكون السياسة إحدى وسائله وقد لا تكون" .

وبوضوح حادّ يقول : "إنّ مجلتنا الشهرية ، وغير السياسية لا ترى من شأنها أن تَتطرّق إلى الأمور السياسية في كثير أو قليل ، ولا ترى من شأنها أن تبحث أمورا هي من اختصاص الصحافة السياسية ، ولا ترى أنّ من حقّ أحد أن يجرّها أو يحشرها في ما لا ترغب ، ما دامت تُعلن عن خطّها ، وعن موقفها في كل مناسبة . أنّ مجلتنا الأدبية العلمية والاجتماعية ، ستظلّ تُعالج الأمور حسب اجتهاد كتّابها ، حسب إمكانياتهم ، حسب تفهّمهم لرسالة الأدب للحياة ، فهم يعون هذه الرسالة ، ويؤمنون بالعدالة وبالمساواة ، ينادون بها بثقة وبإخلاص ، دون أن يعيروا اهتماما للادعاءات والتفسيرات التي لا تجعل من المُدّعين ثقات ، بل تُجيب على علامات الاستفهام التي تحوم حول تفهمهم لرسالة الأدب وموقفهم منها" .

مجلّة "الفجر" والصوت القومي العربي

بقيت الساحة الأدبية حتى أواسط عام ١٩٥٨ تتراوح ما بين الموقفين المُتضادين المُمثلين بصحافة الحزب الشيوعي الإسرائيلي "الاتحاد والغد والجديد" من جهة، ومن الجهة الثانية بمجلة "المجتمع" المُمثَّلة بمحرّرها الشاعر ميشيل حدّاد وسكرتير تحريرها الشاعر جمال قعوار، إضافة إلى صحيفة "اليوم" – الناطقة بلسان حزب المباي الحاكم– ومجلة "حقيقة الأمر". ولم يكن لجريدة "المرصاد"، لسان حال حزب "المبام الموحد" تأثير كبير على الحركة الأدبية.

في شهر تشرين أوّل ١٩٥٨ صدر العدد الأول من مجلة "الفجر" وبسرعة احتلّت موقعا مُميّزا على الساحة الثقافية، والتف حولها عدد كبير من الشعراء والكتّاب، وذلك لما كان لمحررها الأدبي الشاعر راشد حسين من علاقات وتأثير. وقد اختطّت لنفسها منذ العدد الأول طريق الوقوف إلى جانب الجماهير في الدفاع عن حقوقها القوميّة وفي دَفع التيّار العربي القومي المُمثّل برئيس مصر جمال عبد الناصر.

وهكذا أخذت الدراسات الفكرية والمنهجية والأيديولوجية التي تتناول القومية والعروبة والاشتراكية تتوالى على صفحات أعداد "الفجر" بأقلام كبار الكتّاب في العالم العربي أمثال: أحمد بهاء الدين ومطاع صفدي وسهيل إدريس وعبد العظيم أنيس ورجاء النقّاش وطه حسين، إضافة إلى الكتاب والشعراء العرب داخل إسرائيل مثل: سميح القاسم وجمال قعوار وفتحي فوراني وأحمد حسين وفوزي الأسمر وشكيب جهشان وغيرهم.

ويُؤكد محرّرها في العدد الأول من السنة الثانية (١٠) قائلا: "نحن أسّسنا هذه المجلة لمقاومة اليأس! وأسّسناها لمقاومة اللامبالاة! أسّسناها لكي نُدلّل على أنّ العربي، يُمكنه في هذه البلاد، أن يعمل من أجل ثقافته القومية.. ولكي نجعله على اتصال دائم بأمواج الفكر العربي التي تتدفّق على شواطئ الحياة العامة في العالم العربي".

وقد أثار الشاعر راشد حسين على صفحات "الفجر" العديد من النقاشات الحادّة مع الأدباء والكتاب الممثلين للتيارات الفكريّة والسياسية المختلفة. وكان أشدّ وأعنف هذه النقاشات مع الشاعر حنا أبي حنا حول الموقف من الصراع الفكري الذي احتدم بين

الرئيس جمال عبد الناصر والاتحاد السوفييتي عام ١٩٥٩، وموقف عبد الناصر من حكومة عبد الكريم قاسم في العراق.

ابتدأت المواجهة بتعليق من حنا أبي حنا على مقالة تحت عنوان "شعراؤنا" كان راشد حسين قد نشرها في مجلة "الرائد" (العددان ٤/٥) عام ١٩٥٧.وطرح فيها آراءه فيما يُنشر من شعر لشعراء محليين حيث قال: "لا يزال شعراؤنا في إسرائيل يجهلون قيمة فنهم ومعناه، إنّهم يهينون الشعر، يهينون قُدسيّة الشعر ويسخرونه لما لم يُخلَق له. وإنّ مصيبة شعرائنا أيضا، أنّهم لا يجدون ناقداً واحدا يعرف أصول النقد. وكل الذين يعرضون للشعر عندنا مخادعون أو جبناء وأكثر شعرائنا مغرورون كلهم يحسب نفسه شاعر الجيل."

ويعلّق حنا أبو حنا على كلام راشد قائلاً: لا يُمكن للقارىء أن يتوجّه إلى هذه الأحكام بجدّ، فنحن لن ننكر على الكاتب هذه الأحكام لو بسطها بالبحث والتحليل وأقنعنا بالنتائج .. ولكنه لم يفعل ذلك. ولو أردنا أن نُساير الكاتب فنأخذ مقاله على أنّه من باب "الخواطر"، فهي خواطر غائمة، فجّة جدّا نخشى على أنفسنا منه من عُسر الهضم، ألم يكن خيرا لراشد لو عالج قصائد بعينها أو شعراء بأسمائهم فيُدلّل على ما يُريد بالمثل المجسم، ويقنع ويرشد؟ لا أريد أن أتّهم راشدا بالجبن – كما اتّهم هو كل الذين يعرضون للشعر .. ولكنني أنصحه بأن يُخصّص قبل أن يُعمّم".(١١)

وعاد حنا أبو حنا ليُناقش راشد حسين حول الآراء التي طرحها في زاويته "حكايات واراء" (١٢) حول الوطن الفكري والمثقفين العرب. وتابع حنا تعليقاته على كتابات راشد في "الفجر" حول حكومة عبد الكريم قاسم والخلاف السوفييتي – الناصري، ويصل انفعال حنا حدّا لا يَتمالك فيه نفسه في دفاعه عن الشيوعيين ومواقفهم بقوله مُتحدّيا ومُتّهما راشدا: "إنّ الشيوعيين – يا راشد – الذين ترمز إليهم متهكّما انّهم "عباقرة وأبناء عباقرة" يعرفهم شعبنا في كفاحه طيلة السنين، وتعرفهم أنتَ أيضا، وتعلم مدى تضحياتهم في سبيل الشعب والكفاح، وتحرّر الشعوب العربية واستقلالها.. وأنتَ تعلم أنّك لا تستطيع أن تجاريهم في هذه التضحيات .. فجهرك بالقومية والوطنية يصل إلى حدّ .. بينما لا يُقيمون هم مثل تلك الحدود. فإذا كتب كاتب مقالا أو نظم شاعر قصيدة يشيد فيها بكفاح بور سعيد .. ووقّع على ذلك بتوقيع مُستَعار دون أن يجرؤ على اعلان اسمه .. فليذكر أنّ الشيوعيين وقفوا في غمرة العدوان في اجتماع شعبي، رغم الارهاب والتهديد

يهتفون في وجه حكّام اسرائيل : إرفعوا أيديكم عن مصر .. وهتف كُتّابهم وشعراؤهم دون تستّر ، وبكلّ جرأة يشيدون بالكفاح البطولي ولنصرة الحق والعدالة " . (١٣) وبهذا يشير حنا أبو حنا إلى نشر راشد حسين عدّة قصائد في جريدة (الاتحاد) ومجلة (الجديد)ووقّعها باسم (أبو إياس) متحاشيا ذكر اسمه الصريح.

وكان ردّ راشد حسين القاسي في مجلة الفجر (١٤) حيث وجّه رسالة إلى حنا أبي حنا ناقشه فيها حول الآراء والمواقف المختلف عليها وهاجم الشيوعيين بعنف وأنهى رسالته بقوله مخاطبا حنا أبا حنا : " وانقسمت الأعلام هنا أيضا. فلا تقل إنّ أحداً سواكم قسّم الأعلام. لا تقلها يا حنا. ابتلعها هذه المرّة رغم قسوتها. كما ابتلعنا نحن كثيرا من الأحاديث المرّة القاسية! ثمّ .. – وما أمر هذا الحديث الذي دفعتني إليه– .. ما أمر هذا الألم الذي يأكل نفوس المئات منّا اليوم.. ما أمر هذا الشقاق الذي سببتموه.. ! أين سرتم.. وأين وقفتم؟. وبعد .. فقد كانت كل الشعارات خادعة إذن!؟ هكذا تقول.. واأسفاه يا حنا..! ولكنّها أحوال الطقس.. ولكنه الوطن الفكري " .

وتابع حنا أبو حنا نقاشه مع راشد حسين على مدى عدّة أعداد من " الجديد " وأنهاّه تحت عنوان " كلمة أخيرة " مؤكّدا على " أن النقاش الذي دار مع راشد حسين لم يستهدف راشدا شخصياً، بل استهدف الأفكار التي عرض لها " (١٥).

لكن راشد حسين عاد ليهاجم الشيوعيين وقادة الحزب (١٦) مُوجّها لهم مختلف الاتّهامات. وكانت رسالة جمال قعوار له (١٧) مناسبة لمتابعة الهجوم، فقد جاء في رسالة جمال قعوار لراشد حسين: " أكتب إليك، بعد أن قرأت ما كتب في الجديد والغد، وما كتبه سميح (المقصود سميح القاسم) في اليوم أيضا، وليس لأنّي أكتب إليك أقول بأنّ كل ما كتب في الموضوع كان تحاملا ومجموعة من الألفاظ غير اللائقة ، لا تُسمن ولا تُغني من جوع. وأنا ما زلتُ أنتظر مقالا رصينا يُعالج الشجرة من جذورها، ويخرج منه القارىء بشيء ما، غير السّباب والشّتم، ويُعيد إلى القارىء ثقته بنا ، نحن الذين كتبنا له.. من أجله، وليس من أجل أنفسنا وأنانيتنا؟ " . فهاجم راشد موقف الكتاب الشيوعيين الذين هاجموا شعره الغزَلي ، وقال : " والذي أريد قوله للشيوعيين .. هو أنّ شعر الغزل شعر واقعي .. بل هو ضرورة من ضرورات الواقعية.. بل لعلّ أوّل انتاج أدبي في تاريخ العالم كان شعرا غزليّا " (١٧).

لكنّ مجلّة "الفجر" لم تستمر أكثر من أربع سنوات، وكانت تتوقّف على فترات مختلفة ثم نهائيا بصدور آخر عدد في حزيران عام ١٩٦٢. وكان لسفر راشد حسين إلى خارج البلاد الأثر الكبير على توقّف المجلّة، ورغم ذلك ظلّت تُمثّل علامة مهمّة في بلورة الحركة الثقافية للعرب داخل إسرائيل.

مجلة " الهدف" والمواجهة الهادئة

كان من أثر اختفاء مجلة "المجتمع" التي مثلت الوجه المقابل والمناهض لما تُمثّله مجلة "الجديد" واحتلال مجلتي "الجديد" و "الفجر" للساحة الثقافية الأدبية المحلية، أن فَكّر القائمون على السياسة في حزب المباى صاحب السلطة يومها، باستغلال مظَلّة "الهستدروت" نقابة العمال التابعة لحزب المباي باصدار منبر ثقافي يُتابع هدف مجلة "المجتمع" في افساح المجال للكتاب والشعراء البعيدين عن الحزب الشيوعي والخط القومي المناهض ليجدوا لهم المنبر الذي ينشرون فيه انتاجهم وتسويقه. وبالفعل صدر العدد الأوّل من مجلة "الهدف" في شهر تشرين أوّل من عام ١٩٦٠ . وقد اختير توفيق شموش لرئاسة التحرير ومصطفى مرار وجمال قعوار ليحرّرا المجلة.

لم يخف القائمون على هذه المجلة هدفهم من إصدارها، وإنّما أعلنوه صراحة بأنّ المجلة ستكون لسان حال الهستدروت، وأنها ستجعل في طليعة أهدافها تعزيز أواصر التفاهم والتقارب والأخوّة بين جميع المواطنين، وتعجيل سير اندماج المواطنين العرب في المجتمع الاسرائيلي ولا سيّما اندماج المواطنين العرب في جميع مؤسسات الهستدروت ودوائرها على أساس المساواة والاحترام المتَبادل. وأنّ المجلة ستسعى جهدها إلى رفع المستوى الثقافي والأدبي مُتَوخيَة تشجيع ومعاضدة الكتاب والأدباء من الناشئة المثقفة، وإفساح المجال للتعاون والمساهمة بين الأدباء العرب واليهود في معالجة مختلف الأمور، وفتح أبواب النقاش الحرّ النزيه لكافّة المشاكل المحلية والعامة. وأنها ستُعنى بنقل بعض الإنتاج الأدبي والثقافي العربي وباقتباس بعض انتاج الأدب العبري والأدب العالمي أيضا. وستحرص هيئة التحرير على مراعاة مستوى أدبي وعلمي لائق، جاعلة من المجلة منبراً حرّاً للتداول والنقاش، متفادية الجدل العقيم الذي من شأنه أن يُسبّب البغض والكراهيّة ويُثير خلافات ونزاعات ليتها تزول وتمحى. وأنّ الشعار الذي اتّخذه القيّمون على المجلّة هو شعار السلام الذي دعا إليه النبي أشعياء ، وأنّهم على هداه وهَدي وقيَم ومبادىء الهستدروت والحركة الاشتراكية الحقّة يقدمون على تنفيذ مشروعهم الأدبي هذا بإصدار مجلة "الهدف" (١٨).

وقد رئس تحرير المجلة توفيق شموش وهيئة تحريرها تشكّلت من مصطفى مرار

وجمال قعوار. وقد استمرت المجلة بالصدور على مدار سنتين كاملتين وساهم في الكتابة فيها الكثير من الكتاب والشعراء، وبشكل خاص داوم على الكتابة في معظم أعدادها الشعراء والكتاب: جمال قعوار، فهد أبو خضرة، مصطفى مرار ، سعود الأسدي، توفيق شموش، سامي مزيغيت، أحمد حسين، ميشيل حدّاد، محمود عباسي،مؤيّد إبراهيم، يوسف إسماعيل، حبيب زيدان شويري، سليم خوري، فوزي عبد الله، شموئيل موريه، موسى بيامنتا، جورج نجيب خليل، سعاد قرمان، طه محمد علي، سليم شعشوع، سلمان فلاح، اسبيرانس كوهين، قيصر كركبي.

وقبل أن يصدر العدد الثالث من مجلّة "الهدف" كانت الهدف للهجوم العنيف الذي كتبه حنا أبو حنا في زاويته الشهرية "خواطر شائكة" في مجلة "الجديد" (١٩)،وبدأ هجومه حول كيفية اختيار اسم المجلة "الهدف" وأنّها جاءت لتسدّ مكان مجلة "حقيقة الأمر" التي فشلت في القيام بدورها المنوط بها ، واستذكرَ مغامرة عمر بن أبي ربيعة في زيارته الليلية لنُعم محبوبته ، وكيف خرج متسترا ومحاطا بأخواتها الثلاث ليأمن عين الرقباء. وانتقل ليهاجم المجلة وأهدافها بقوله: أمّا محرّر "الهدف" فاكتفى بشخصين اثنين فقط من آل "نعم"! ظهرا إلى جانبه في صدر المجلة كأعضاء في هيئة التحرير الجديدة" ويقصد بهما : مصطفى مرار وجمال قعوار.

وتصدى حنا أبو حنا للهدف من إصدار المجلة بقوله: "وتصدر المجلة باسمها الجديد وثوبها الجديد.. أمّا الهدف .. فلم يتغيّر: السمّ الثقافي ينفث في دخان التدجيل الفكري. وأمّا المُستَهدَفون فهم شبابنا المثقفون الذين أقضّوا مضاجع أولئك الذين يزرعون الحراب ويُقيمون كراسيهم عليها.

كذلك هاجم محمود درويش شعر جمال قعوار وعمله في تحرير مجلة "الهدف" بمقالة حادّة جارحة بعنوان "فلسفة الخوف" هاجم فيها جريدة "اليوم" وكتّابها وانتقل بعدها ليتحدّث عن جمال قعوار بقوله: "تعال معي لنتعلّم الفلسفة الجديدة التي جاء بها أحد فرسان جريدة "اليوم" وزميلتها "الهدف" الفارس الجديد .. اسمه جمال قعوار." (٢٠) وتابع كلامه الحادّ الجارح على عمودين كاملين من عدد المجلة.

جذور الحركة الشعريّة العربيّة في إسرائيل

إستعرض الدكتور عبد الرحمن ياغي في كتابه **حياة الأدب الفلسطيني الحديث** مسيرة الأدب العربي في فلسطين، مُبرزا مراحل نموّ وتطوّر هذا الأدب. وقد قسّم هذه المراحل إلى أربع :(٢١)

الأولى : تمتدّ من منتصف القرن التاسع عشر حتى فترة إعلان الدستور في تاريخ السلطنة العثمانيّة عام ١٩٠٨ .

وقد تميّزت هذه الفترة بالنظام الإقطاعيّ الذي كان يُحيط بها إطارا اقتصاديّا وسياسيّا وبالمحتوى الدينيّ الذي كان يتشكّل بأشكال هذا الإطار.

الثانية: تمتدّ من عام ١٩٠٨ إلى نهاية الحرب العالميّة الأولى. وقد تميّزت بالتقلّبات السياسيّة وانحسار الحكم التركي ، واستبداله بالانتداب البريطاني على البلاد . وتبرز في هذه الفترة الحركة العربيّة الكبرى وأثرها على نموّ الوعي القومي في فلسطين.

ومن شعراء هذه الفترة يذكد إسكندر الخوري البيتجالي ووديع البستاني، ومن القصصيين خليل بيدس .

الثالثة: تمتدّ من نهاية الحرب العالميّة الأولى حتى بداية الحرب العالمية الثانيّة . وتتميّز بعنف العمل السياسيّ والوعي القوميّ والصّراع الدّائب ضدّ الغزو الأجنبيّ ، وظهور الأحزاب السياسيّة الكثيرة. ومن أبرز شعراء هذه المرحلة : إبراهيم طوقان، أبو سلمى، عبد الرّحيم محمود ، مطلق عبد الخالق ، قيصر الخوري. ومن القصصيين : أحمد شاكر الكرمي، محمود سيف الدين الإيراني، جبرا إبراهيم جبرا، فايز الصائغ .

الرابعة : تمتدّ من عام ١٩٣٩ إلى عام ١٩٤٨، وقد برز في عالم القصّة بالإضافة إلى مَن ذكرنا في المرحلة الثالثة : نجاتي صدقي، إسحق موسى الحسيني، نجوى قعوار فرح ، أسمى طوبي . وفي الشّعر : برهان الدين العبوشي، حسن البحيري، معين بسيسو، هارون هاشم رشيد.

أمّا بالنسبة للحركة الشعريّة العربيّة داخل إسرائيل ، فقد اتّفق جميع مَن تناول الحركة الأدبيّة العربيّة داخل إسرائيل على أنّ الشّعر كان الرّياديّ فيها ، وأنّه واكب حركة الشّعر العربيّة والعالميّة ، واستطاع رغم سنوات تعثّره الأولى أن يلحق بها ويحتلّ المَكانة المحترمة

فيها .

وقد اختلف مؤرخو الأدب العربي المحلي تبَعا لاختلاف الشعراء هنا ، حول علاقة الحركة الشعرية ما بعد عام ١٩٤٨ بالحركة الشعرية الفلسطينية ما قبل ذلك ، وفيما إذا كانت أشعار وديع البستاني وإبراهيم طوقان وعبد الرحيم محمود وأبي سلمى ومطلق عبد الخالق تُشكل اللبنة الأساسية في شعر الشعراء الذين جاءوا بعدهم وأعني : حنا أبا حنا وعيسى لوباني وعصام العباسي وتوفيق زيّاد ومحمود درويش وسميح القاسم وراشد حسين وسالم جبران .

قال الشاعر محمود درويش مخاطبا الشاعر أبا سلمى في تقديمه لديوانه :

" أنت الجذع الذي نبتت عليه أغانينا ، نحن امتدادك ، وامتداد أخويك اللذين ذهبا ، إبراهيم وعبد الرحيم الذي قاتل بالكلمة والجسد .لا لسنا لقطاء الى هذا الحد . إننا أبناؤكم . لقد كنت شاعر المقاومة قبل اكتشاف النقاد لهذا التعبير وقبل تحوّله الى تعبير شائع " (٢٢).

ويرى توفيق زيّاد أنّ هؤلاء الشعراء الثلاثة يشكلون النواة الثورية والجذوة الأولى التي ألهبت شعر المقاومة ودفعت به في معركة التحرر الوطني والقومي ويزيد (٢٣) " فشعر المقاومة الحالي لم يكن مبتكرا ولا منقطع الجذور ، لذلك إن لهب المشاعر الانسانية في قصائد أبي سلمى هو التمثيل الصادق لشعر المقاومة الحق " .

وهذا يعني أن الشعر الذي كتبوه كان امتدادا لشعر الشعراء الذين سبقوهم وإن كنت أنا أشك في مدى وقوّة هذه العلاقة ، وأعتقد أن حركة الشعر المحلية تأثّرت أكثر بالحركة الشعرية العربية التي اشتدت بعد الحرب العالمية الثانية ، وتُؤكدها أشعار ميشيل حداد المتأثرة بالشعر اللبناني ، وخاصة بأسلوب شعراء مجلة " شعر " الخارج على قانون القصيدة التقليدية ، وبدايات محمود درويش الواضحة التأثّر بشعر السياب ونزار قباني ، وبدايات سميح القاسم المتأثرة بأشعار السيّاب وعلي محمود طه ، ومثلهما كان راشد حسين متأثرا بنزار قباني وسالم جبران متأثرا بعبد الوهاب البياتي .

والشعراء أنفسهم لم يذكروا تأثّرهم بالشعراء الفلسطينيين قبل عام ١٩٤٨ إلاّ في سنوات السبعين وما بعدها ، بينما قبل ذلك كانوا يتجاهلون هذه العلاقة ويُؤكّدون على العلاقة مع الحركة الشعرية في العالم العربي.

وقد قال محمود درويش في لقاء أجراه معه الناقد محمد دكروب نشرته مجلة " الطريق " اللبنانية ونقلته مجلة "الجديد" ، " لكن هذا الشعر الجديد الذي كنا نقرأه في "الاتحاد" و "الجديد" للشرقاوي والبياتي والبغدادي وبسيسو والسيّاب وغيرهم يشعرنا بعلاقة أقرب ، ويلهبنا بالحرارة صلته المباشرة بالواقع ، فأخذني هذا الشعر الى أوّل الطريق ، وانفصلتُ عن حبّي الجارف لشعراء المهجر وعلي محمود" (٢٤) .

وقال سميح القاسم في مقابلة مماثلة مع محمد دكروب نشرتها مجلة "الطريق" ونقلتها "الجديد" ، " إنّ أوّل كتاب دفعني إلى طريق الشعر هو كتاب لعلي محمود طه بعنوان **أرواح شاردة** عن حياة بعض شعراء العالم، منهم: بودلير ، ورامبو ، وشيلي . وقد أثر هذا الكتاب فيّ كثيرا " (٢٥).

وسميح القاسم نفسه رثى السيّاب بكلمات يعترف فيها بفضل شعر السيّاب عليه قائلا (٢٦) :

يا بدر !
بالكلمة أحلف ، بالحب
أن أروي طول حياتي أخبارك
أن أحفظ أشعارك
عن غيب !

كذلك يذكر يوسف الخطيب " أن أحد الشعراء اعترف له قائلا :

نحن في آخر الأمر نتائج التفاعل ، الغني ، الخصب ، مع أدب شعبنا في الوطن العربي." (٢٧).

ويرى جبرا إبراهيم جبرا أنّ " شعراء المقاومة في الأرض المحتلة ما هم إلاّ وليد ذلك المخاض الجائر الذي عاناه سابقوهم عاما إثر عام وهم يُجابهون ويقولون ما لا يريد الآخرون أن يذكروه" (٢٨)

وهذا يعني – كلام معظم الشعراء والأدباء حول استمرارية المدّ الشعري، قبل عام ١٩٤٨ إلى ما بعدها وتأثيره على الحركة الشعرية العربية داخل إسرائيل – أن شعر الشعراء العرب داخل إسرائيل ما هو إلاّ استمرار للحركة الشعرية التي عرفتها البلاد في السنوات السابقةرغم تنكّر بعض الشعراء لذلك وتجاهلهم لما كان. وإن قصائد الشعراء : حنا أبو حنا

وعصام العباسي وتوفيق زيّاد وحنا إبراهيم وجورج نجيب خليل وميشيل حداد، وقصص إميل حبيبي ومقالات إميل توما وجبرا نقولا الذين كتبوا ونشروا قبل عام ١٩٤٨ واستمروا في الكتابة والنشر بعد عام ١٩٤٨، وكانوا حملة مشعل الحركة الأدبية والثقافيّة للعرب داخل إسرائيل، لأكبر تأكيد على عُمق جذور الحركة الأدبية العربية والشعرية خاصة، وارتباطها الوثيق بما كان.

وفي هذا إلغاء للرأي المدّعى بتفرّد هذه الحركة وانبثاقها من عَدم.

مجلة "الجديد" رافد مهمّ
في نهضة الحركة الشعرية العربية في إسرائيل

اهتم المسؤولون في الحزب الشيوعي منذ العدد الأول من مجلة "الجديد" أن يُؤكّدوا على الدور الهامّ المنوط بالمجلّة لتجذير الفكر الذي يدعو إليه الحزب بين الفئات المتعلّمة والمثقفة من الجماهير العربية في إسرائيل، ولتكون مع جريدة "الاتحاد" الوسيلة الإعلاميّة والتثقيفيّة الفعّالة على الساحة العربية.

وأخذت مجلة "الجديد" منذ عددها الأول (٢٩) تعمل على نشر الدراسات والقصائد والقصص التي تدعو للتوجّه اليساري وتُبرز الشخصيّات الفكريّة والأدبيّة ذات الانتماء الشيوعي أو اليساري. فمثلا في العدد الأول نشرت دراسة لإميل حبيبي حول الشاعر العراقي الشيوعي محمد مهدي الجواهري، وقصيدة للشاعر المصري اليساري محمد كمال، وفي أعداد لاحقة نشرت القصائد العديدة، لعبد الوهاب البياتي وعبد الرحمن الشرقاوي وشوقي بغدادي ومحمد الفيتوري وعبد الرحمن الخميسي وأبي سلمى وغيرهم.

كما كان اهتمام مجلة "الجديد" بنقل الأدب اليساري العبري والعالمي إلى القارىء العربي، وهذا أيضا برز في قصائد عديدة نشرتها منذ العدد الأول لشعراء مثل: دافيد أفيدان، حايا قدمون، ألكسندر بن، ناظم حكمت، لوركا، بابلو نيرودا ،يفتشنكو وغيرهم إلى جانب العديد من القصص المترجمة عن الآداب العالمية والروسية خاصة.

وكان لمثابرة مجلة "الجديد" على الصدور الأثر على لفت انتباه الفئات المتعلمة والمثقفة وجذب بعض ذوي المواهب الغضّة، خاصة وأنّ الأحداث السياسيّة التي ألّمت بالبلاد فرّغتها من المُبدعين في مختلف مجالات الإبداع، والذين آثروا البقاء ومُتابعة الإبداع، كانوا في معظمهم ينتمون إلى الحزب الشيوعي الإسرائيلي أو من المُقرّبين منه، وهؤلاء عملوا في صحف الحزب ومجلاته، وأذكر منهم: إميل توما، إميل حبيبي، عصام العباسي، توفيق زيّاد، حنا أبو حنا، حنا إبراهيم، جبرا نقولا، عيسى لوباني. ثمّ انضمّ إليهم المبدعون اليهود الذين قدموا من العراق مثل: ساسون سوميخ، دافيد صيمح، إبراهيم خيّاط، سمير مارد الذي غيّر اسمه لسامي ميخائيل وهو من أبرز كتاب الرواية العبرية في إسرائيل.

هكذا استطاعت مجلة "الجديد" أنْ تُثَبّتَ أقدامَها على الساحة الثقافية العربية داخل إسرائيل، وأنْ تكون أهم الروافد لبَعث حركة أدبيّة واعدة واضحة الهدف والطريق، فمع التأكيد على الأدب الملتزم الجيّد، كانت "الجديد" نافذة مهمّة على الآداب العالميّة التي تُركّز على الناحية الانسانيّة وتُسلّط الأضواء على المجتمع بكلّ ما فيه لتُعرّيه وتُحرّض على تغييره.

هذا الموقف الملتزم والمُوَجّه والمُسيّس والانتقائي للمجلة كانت له أيضا تأثيرات سلبيّة على مدى العلاقة بمجلة "الجديد"، إذ أنّ العديد من المُبدعين الرّافضين هذا التّوجّه الفكري ابتعدوا عن الكتابة في مجلة "الجديد"، والبعض منهم اهتمّ أن يُصدر منابر أدبيّة فكريّة تعمل على الساحة الثقافيّة مثل: الشاعر ميشيل حدّاد الذي أصدر مجلة "المجتمع"، والشعراء مؤيّد إبراهيم وجمال قعوار وطه محمد علي ومحمود الدّسوقي وجورج نجيب خليل وغيرهم الذين آثروا النشر في منابر أخرى مثل جريدة "اليوم" ومجلّة "الهدف" وجريدة "المرصاد" وغيرها.

وهذا الموقف أبعدَ في السّنوات اللاحقة مُبدعين في مختلف المَجالات عن مجلة "الجديد" مثل الكُتّاب: محمد علي طه، زكي درويش، مصطفى مَرّار، أدمون شحادة وغيرهم. ولم يحدث التّحوّل عند البعض منهم إلاّ في منتصف الستّينات، حيث بدأنا نقرأ قصّة لهذا أو قصيدة لذلك، أمّا قبل ذلك فكانت مثل هذه القصائد والقصص نادرا ما تُنشَر في "الجديد".

رغم كلّ ما ذكرتُ من التحديدات التي فرضها القيّمون على المجلّة، فقد كانت مجلة "الجديد" نافذة على الأدب العربي خارج إسرائيل، وعلى مُجمَل الآداب العالمية،وهمزة وصل بين ما يجري من تغييرات على الساحة الأدبية وأدباء العربية داخل إسرائيل. وساهمت في بَعث حركة أدبيّة نشطة واستيعاب التّغييرات التي عصفت بالأدب العربي في الدول العربية ولو في حدود ضيّقة.

مضمون الشعر العربي في إسرائيل

يرى بعض الذين تناولوا دراسة الحركة الشعرية الفلسطينية في إسرائيل مثل الدكتور صالح أبو إصبع (٣٠) وخالد علي مصطفى (٣١) أنّ تَوزيع المضامين التي دارت حولها قصائد الشعراء على النحو التالي:

١ـ الاتجاه الذاتي . ٢ـ الوطني . ٣ـ القومي . ٤ـ الأممي . ٥ـ الانساني .

وأزيد عليها ما سمّاه محمود درويش: " الاتجاه الواقعي الاجتماعي " (٣٢) . وواضح أن هذا الترتيب اعتمد مضامين الشعر والمواضيع التي تطرّق إليها الشعراء في قصائدهم ، ولم يتبّع أي متابعة منهجيّة لمجمل الشعر الذي نشر ، وكان نتيجة لإهمال الجانب الفني من قبل معظم الدارسين للشعر العربي داخل إسرائيل واكتفائهم بالتركيز على المواضيع التي تناولها الشعراء ، وقد وافقهم الشعراء والأدباء والنقاد هنا على هذا التقسيم وهذا التوجّه .

ورغم التفسيرات والتعليلات المختلفة التي أبرزها البعض ، إلاّ أن بعض الشعراء هنا فسّروا دوافع هذه الاتجاهات ، فالشاعر حنا أبو حنا يعلّل ظاهرة " الشعر الذاتي " بقوله: " هذه الظاهرة طبيعية في ظروفنا ، فالعاطفة تكتنف حياتنا ومآسينا ، والشعر لغة العاطفة ، والشعر يحتاج إلى الطبع في الأساس " (٣٣) .

ويتّفق محمود درويش معه في التأكيد على " أنّ الاتّجاه الذاتي كان الأول " (٣٤). (من قصائد الاتجاه الذاتي: " ليل شتاء " لحنا أبي حنا (كانون الأول ٥٥) ، وقصائد جمال قعوار " كن كوكبا " (نيسان ١٩٥٦) " أبي سعدت صباحاً " (شباط١٩٥٨) . وقصيدة محمود دوريش " أختاه " (أيّار ١٩٥٨).

أما الاتجاه الواقعي الاجتماعي الذي يراه محمود درويش أبرز ظاهرة في الشعر المحلي (٣٥) فقد تبلور على أثر التفات الشاعر الى حياة الناس الذين يعيش بينهم ومشاركتهم آمالهم وهمومهم ، ورفع صوته معبّرا عمّا يطالبون به .

و " الواقعية " أصطلاح اضطربت دلالته وتنوعت مفاهيمه في ترجمته الى اللغة العربية وكل ذلك كما يقول محمد مندور بسبب الأصل الاشتقاقي للكلمة وهو لفظه " واقع " (٣٦) والواقعية Realisme تعود الى تاريخ قديم ، ومنذ البداية برز التعارض بينها وبين المثالية

Idealism وتختلف عنها بأنّها " ترى الحياة في أصلها شرّا وبالا ومحنة بينما تراها المثَالية خيرا وسعادة ونعمة " (٣٧). وقد عرّفها محمد مندور بقوله: " الواقعية تسعى إلى تصوير الواقع وكشف أسراره وإظهار خفاياه وتفسيره ، وهي ليست الأخذ عن واقع الحياة وتصويره بخيره وشرّه كالآلة الفوتوغرافية ، كما أنّها ليست معالجة لمشاكل المجتمع ومحاولة حلّها أو التوجه نحو هذا الحل ، كما أنها ليست ضد أدب الخيال أو الأبراج العاجيّة ، وإنما هي فلسفة خاصة في فهم الحياة والأحياء وتفسيرهما. " (٣٨).

وقد عدّد Damian Grant في دراسته عن الواقعية ستة وثلاثين نوعا من الواقعية (٣٩) ، لكن مجال الاهتمام هنا بما يُعرَف بالواقعية التي جاءت لتحتج على التيار الرومانطيقي وتتناول المجتمع بالنقد .

ويرى محمود أمين العالم أنّ " الواقع في الفن ليس هو هذا الواقع المادّي الخارجي المستقل عن شعور الإنسان ووعيه ، إنّما الواقع هو مجموعة العلاقات المتشابكة بين الانسان والعالم المحيط به ، بين الماضي والحاضر والمستقبل ، بين التجارب الذاتية والأحلام والعواطف والأخيلة ، إنّ العمل الفني يُوحّد بين الواقع والخيال . " (٤٠).

وهذا التّوجه الاجتماعي للأدب بدأ يبرز منذ مطلع القرن العشرين في روسيا خاصة ، وأدى إلى تبلور نظرية اشتراكية للأدب ، وقد حدد الناقد " شدانوف " هذا الموقف بقوله: " لا بدّ من دراسة الأدب في علاقته التي لا تنفصم بالحياة الاجتماعية من ناحية البنية السفلى التي تُشكّلها العوامل التاريخية والاجتماعية ذات التأثير الحاسم في الكاتب " (٤١).

وقد تأثر الشعراء العرب اليساريون في العالم العربي وفي إسرائيل بهذا التيّار الأدبي وبرز ذلك في قصائدهم التي تناولت واقع الناس اليومي بالتركيز على الجوانب الاجتماعية والتأكيد على إمكانية التخلّص من الواقع السيّء بغرس الأمل وبعث التفاؤل . لأنّه كما يقول الناقد فيشر " ليس بكاف أن تكون مقتنعا بانتصار الاشتراكية ، أو أن تكون عارفا بالمبادىء الاجتماعية العامة، وإنما من الضروري أن تقدّم أشكال الانتقال ، والتغيّر بكل متُناقضاتها الفعلية ، وأن تُبشّر بالمستقبل وتتنبّأ به " (٤٢).

ومن القصائد التي يمكن إدراجها ضمن الواقعية في السنوات الأولى لتناولها قضايا اجتماعية مختلفة مع موقف انتقادي تفاؤلي أذكر : " قصيدة عصام العباسي " تأمل بعيدا بأفق رحيب " (٤٣) ، وقصيدة توفيق زياد " إلى أين يذهب ما ندفع " (٤٤)، وقصيدة حنا أبي

حنا " لن تطول الطريق " (٤٥)، وقصيدة شكيب جهشان "أنت والغد" (٤٦)، وقصيدة محمود درويش "عشقت غريبا (٤٧).

كان من نتيجة التحولات السياسية التي المّت بالعالم العربي أن تركت أثرَها على الساحة العربية داخل إسرائيل ، وشدّت اليها انتباه الشعراء الذين بدأوا يتحسسون المشاعر الوطنية ويجدون أنه من حقّهم أن ينالوا الحرية والمساواة . وكانت المهرجانات الشعرية التي شهدتها العديد من القرى والمدن العربية في إسرائيل واضحة الأثر على زيادة الحسّ الوطني وانتشار ظاهرة الشعر الوطني ، وغَلَبَة هذا الاتجاه على غيره ، ومن القصائد التي أذكرها : قصائد حبيب قهوجي في عدة أعداد . وقصائد محمود درويش ، وتوفيق زياد ، وقصائد لعيسى لوباني وعصام العباسي وحنا أبي حنا وحنا إبراهيم وغيرهم .

وبرز في أواخر الخمسينات وعلى مدار الستينات الشعر القومي، وكان لزيادة الوعي السياسي والثقافي عند الجماهير العربية في إسرائيل .. ولازدياد حدّة الصراع القومي ما بين الحركتين العربية والصهيونية أن حدَث ما يُشبه الاستقطاب ، وحدث الشّرخ في كثير من العلاقات الثقافية التي ربطت العديد من المثقفين العرب واليهود ، وقد برز في "الجديد" اختفاء أسماء المبدعين اليهود الذين ساهموا طوال سنوات الخمسين وبجد في تَطوّر الحركة الثقافية العربية في إسرائيل. وفي هذه السنوات طغت قصائد الاتجاه القومي لمحمود درويش وسميح القاسم وسالم جبران وتوفيق زياد على غيرها من الشعر .

أما الاتجاه الأممي والانساني فقد برز مع بداية الشعر المحلي في الخمسينات وقد تميّز بالمشاعر الانسانية تجاه أبناء الشعوب الأخرى، والتعاطف مع القضايا الانسانية في إطار الموقف الشيوعي ، والتغنّي بالمشاعر الانسانية للانسان . ومن أبرز قصائد هذا الاتجاه الأممي الانساني قصائد دافيد صيمح: "لحن السلام" (٤٨) "وأخي توفيق" (٤٩)، "العهد الجديد "(٥٠)، "أنا غنيت من أجلك" (٥١) وغيرها . وقصائد ساسون سوميخ "تلك القلوب" (٥٢) ، "رغم القيود حرّ أنا " (٥٣) ، "واشتدت الخفقات في قلب الحياة" (٥٤) وغيرها . وقصائد لحنا أبي حنا وعيسى لوباني وغيرهما .

الإشارات

١- مجلة الجديد، ٣/ ١٩٥٤

٢- مجلة الجديد، ١/ ١٩٥٥

٣- مجلة المجتمع، إيلول ١٩٥٤

٤- مجلة المجتمع، تشرين أوّل ١٩٥٤

٥- مجلة المجتمع، تموز ١٩٥٥

٦- مجلة المجتمع، تشرين أوّل ١٩٥٥

٧- مجلة المجتمع، تشرين الثاني ١٩٥٥

٨- مجلة المجتمع، شباط ١٩٥٦

٩- مجلة المجتمع، تشرين الأوهل ١٩٥٧

١٠- مجلة الفجر، تشرين الثاني ١٩٥٩

١١- مجلة الجديد، ١٩٥٨

١٢- مجلة الفجر، شباط ١٩٥٩

١٣- مجلة الجديد، نيسان ١٩٥٩

١٤- مجلة الفجر، أيار ١٩٥٩

١٥- مجلة الجديد، حزيران ١٩٥٩

١٦- مجلة الفجر، تشرين الأول ١٩٥٩

١٧- مجلة الفجر، آذار ١٩٦٠

١٨- مجلة الهدف، تشرين الأول ١٩٦٠

١٩- مجلة الجديد، كانون الأول ١٩٦٠

٢٠- مجلة الجديد، شباط ١٩٦٢

٢١- عبد الرحمن ياغي ـ حياة الأدب الفلسطيني الحديث ، من أوّل النهـــضـــة حـــتى النكبةلنكبة- بيروت ١٩٦٨.

٢٢-أبو سلمى، من فلسطين ريشتي. دار الآداب، بيروت ١٩٧١

٢٣-توفيق زياد، عن الأدب والأدب الشعبي ، دار العودة، بيروت ١٩٧١

٢٤– مجلة الجديد آذار ١٩٦٩ صفحة ٢١

٢٥ ـ مجلة الجديد نيسان / أيار ١٩٦٩ صفحة ٢٤ / ٢٥

٢٦– سميح القاسم. دمي على كفي، الناصرة ١٩٦٧، ص٧٦

٢٧ ـ يوسف الخطيب ـ ديوان الوطن المحتل ـ ص ٩٩

٢٨– مجلة "مواقف"، عدد ٩، ص ١٨

٢٩– مجلة الجديد، تشرين الأول ١٩٥١

٣٠– صالح أبو أصبع ـ الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة ـ بيروت ١٩٧٩ ص ٢٨

٣١ـ خالد علي مصطفى ، الشعر الفلسطيني الحديث، بغداد ١٩٧٨

٣٢– مجلة الجديد ـ آب ١٩٦١

٣٣– مجلة الجديد ـ ٤/١٩٥٧ ـ ص ٢٦

٣٤ـ مجلة الجديد ـ آب ١٩٦١

٣٥– مجلة الجديد ـ آب ١٩٦١

٣٦– محمد مندور ـ الأدب ومذاهبه ـ القاهرة ـ الطبعة الثالثة ـ ص٨٢

٣٧– محمد مندور، المصدر السابق، ص ٨٢

٣٨– محمد مندور ـ المصدر السابق ـ صفحة ٨٥ / ٨٦

٣٩ – موسوعة المصطلح النقدي . ترجمة، عبد الواحد لؤلؤة، بيروت ١٩٨٣ص ١٦

٤٠ ـ محمود أمين العالم ـ الثقافة والثورة ـ بيروت ـ طبعة أولى ١٩٧٠ ص ٢٢٢

٤١– صلاح فضل ـ منهج الواقعية في الإبداع الأدبي ـ القاهرة ـ طبعة ثانية ١٩٨٠ ،٢١٧ / ٢١٨

٤٢ـ محمود أمين العالم ـ الثقافة والثورة، ص٣٢٣

٤٣– مجاة الجديد، شباط ١٩٥٤

٤٤– مجلة الجديد، ١١/ ١٩٥٤

٤٥– مجلة الجديد، حزيران ١٩٥٥

٤٦– مجلة الجديد، تشرين الثاني ١٩٥٧

٤٧– مجلة الجديد، آب ١٩٥٨

٤٨– مجلة الجديد، آذار ١٩٥٤

٤٩- مجلة الجديد، تموز ١٩٥٨

٥٠- مجلة الجديد، كانون الأول ١٩٥٨

٥١- مجلة الجديد، إيلول ١٩٦٠

٥٢- مجلة الجديد، آذار ١٩٥٤

٥٣- مجلة الجديد، ٨/ ١٩٥٤

٥٤- مجلة الجديد، نيسان ٥٥